AL-SIBA'I

MASRA'
AL-LIWA'

2274
.8797
.S3
.362

2274.8797.S3.362
al-Sibā'ī
Maṣra' al-liwā'

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072235524

٧٦٥٨

يرى القارىء الكريم رسم النبيل وجيه علي أديب زعيم جيله الأوحد والى يمينه المغفور له عبد الله نجل الوجيه المحبوب وجيه بك علي أديب وهو فقيد العلم والوطن .

الى منبع الفضل ومطلع الكرامة ، الى المنار الذي يهدي الحائرين ، وينير الطريق للسالكين ، الى الذي رسم للناس سبل الفضل والاستقامة ، واقام لبناء المكرمات أقوى دعامة ، فغدا حديثه على الالسنة أحلى من برد الندى ، وبات ذكره في القلوب الذ من الرحيق المختوم لمن كواه الصدى ، الى الذي نالت به « جبلة » فضل السبق على البلاد ، واضحت طمعاً في جوده ورغبة في عوارفه مثابة القضاء والرواد .

الى الذي ضرب من الجهاد بسهم وافر . وترنحت بذكر محامده المحاريب والمنابر ، فقرت به عيون الفضل والجود والكرم ، وصار للظامئين الى المعرفة كالمفرد العلم . الى البطل الاروع ، الذي لايتراجع عن مطالبه ولايتزعزع ، الى السابق لكل فضيلة ومكرمة ، والمجلي في ميادين البطولة والملحمة : الى السيد وجيه علي اديب أهدي هذا الكتاب وما هو الا هدية التمر الى هجر ، والوشي الى الزهر بل ماهو الا جهد المقل يهدى الى المكثر في كل مجال ، ومن استوى على عرش المجد والكمال ، فكان حديثه سحرا حلالا ، وماء تميزاً زلالا ، وانا اذ اقدمه الى صاحب المحتد الاثيل والمجد النبيل ، انما افعل ذلك محفوزا بدافع من دوافع الاعجاب بمن قلت فيه :

يارافعاً للعلا والمجد بنيانا ... حيرت كل فؤاد فيك ولهانا

لوان للمجد انسانا يمثله ... مااختار غيرك للتمثيل انسانا

al-Ṣibā'ī, Khalīl

خليل السباعي

Maṣra' al-liwā'

ع. مراد

ان الشعب العربي بحر لجي ، يمور في غيابة الاعماق باضطراب خفي ، حتى اذا ركب اضطرابه غوارب الماء غدا صاخبا هائجا ، فلا يدع سفينة تجوس خلال الامواج الا وهي فريسة لغياهب الاعماق .

(RECAP)

2274
.8797
S3
.362

اليك . . . اليك

ايها الأستاذ زكي الأرسوزي ، والى رفاقك اللوائيين المشردين في الأرض .

اهدي هذا الكتاب .

خليل السباعي

حمص – ايلول ١٩٥٠

8-20-68 1945

من غوارب الجبل

أرأيت الى طود راسخ اشم ، جاور وادياً عميقاً مريعاً ، كيف يعتز بسمو ذراه انوفاً ، ويطاول مسارح الغيوم شماخا ، ويهزأ بكر الايام كأنه الدهر متجسداً بجلاميد الصخور .

هكذا رأيت جبل (حبيب النجار) يتطاول للسماء معتزاً فخوراً بابائه المتجسد في شبا الصخور ، ويرنو الى نهر العاصي واجماً وهو يخترق أطراف سفوحه عسوفاً عاتياً ، كفاتح جبار يتعسف الديار ظلوماً ، فيشطر مدينة انطاكية شطرين عظيمين لاواصل بينها سوى جسر قديم ، ثوى فوق مسيل الماء قعيدا منذ كانت دولة الرومان مرموقة من أعين التاريخ .

كذلك رأيت كيف دفع الجبل سفوحه بعتو الى بعيد ، فانداحت رويداً رويداً نحو الشرق وبانحدار متئد ، ثم تنكبت سبيلها باتزان وقور ، وجنحت الى الشمال قليلا ، فاحتضنت المدينة بحنان بريء ، ثم تعالت عليها باستكبار شامخ ، وحجبت عن هاماتها مرأى جمال الشروق ، فتبدّت المدينة وهي نائمة في أحضان السفوح ، كطفلة جميلة وادعة هجعت قريرة العين في حضن مربية حسناء .

فاذا كان لك في مطاوي الغيب موطىء قدم فوق غوارب جبل (حبيب) فسرّح الطرف سابحا في اتجاه الأفق الشمالي تسريحة صقر صيود ، ترى دنيا تكاد تنطق جذلى من شامخات (اللكام) ، وعظمة عاتية خرساء ، جثمت ركودا في رءوس اليافعات ، وصروحاً نضيرة خضراء عامرة بالحياة ، زاخرة بمهابة الغابات ، وقمماً تتشرع للسماء ، وتنوء صائغة بركام

الثلوج ، وتستشرف مدى الأفق البعيد ، ولكن تتضاحك فرحاً حينما تستقبل شمس البكور ، وتتشاجى أسفاً عندما تشيّع شمس المساء .

كذلك ترى كيف ان النهر ينطلق من المدينة أسفاً كئيباً ، كأنه يشعر بنهاية عمره بعد مطاف طويل ، وينساب في حنايا الوادي رويداً رويداً كأنه يريد إطالة جريه زمانا ، أكان يستمتع بمنظر أشجار الصفصاف المبعثرة على ضفافه هنا وهناك ؟ والجانحة اليه بشوق أغصانها النضيرة ، تقبل مياهه باستحياء جميل ؟ أكان يتلذذ بمرأى عرائس الحور كلما تمايلت بالنسيم وترنحت بعصف الريح ؟ أم كان يستأنس ببساتين الوادي وهي تحبو ومسيله حبواً هادئاً حتى تدرك سيف البحر ؟ لست أدري لم كان النهر يتثاقل بالمسير ! ولم حبّت معه بطاح البساتين تشيعه بخشوع عبرانَ وهو يتصوب الى البحر يائساً كئيباً .. أجاءها وعي من الحياة ، فأدركت ماللعاصي من فضل عميم على أرض الوطن العربي ؟ اذن كيف رافقته حسرى الى مقره الأخير ؟

فاذا ولجت مدخل المدينة وجدت على الضفة الشمالية قصراً منيفاً أقام مهوباً كهابة معبد أثري جاور نهراً مقدساً ، مع ان الزمن كرّ على شبابه دهراً ، فذوى رونق بنيانه النضيد ، وتخضبت جدرانه البيض بنقط سود ، ومالت الى الشحوب من كثرة مانـــاء شاتياً بتضاريب الأعاصير ، ومن شدة ما لفحته صائفاً هواجر القيظ المحموم .

* * *

وترى كيف ان القصر فسح امامه مجالا رحباً لحديقة هزيلة ، كانت في غابر الأيام طروبة غناء ، ولكن يد الاهمال عبثت بنضارتها من زمن بعيد ، فأقفرت من زهـو الجمال وأمعرت من نشر الازاهير ، واعترى عرائش وردها الفواح ، وخمائل نسرينها المعطار ذبـول مقيم ، فـــذوت كاسفة حزينة وهي تتسلق هياكل العرائش ، وترسل الأغصان الى الأرض عطشى وتنتظر غيث السماء ، ومع هذا ظلت الحديقة تزدان بدوح

غابي وريق ، انتصب حول سورها فكساها حلة سندسية من وشاح الغابات .

وكذلك تجد بعيداً عن القصر ميلاً او ميلين رابية خضراء نمنمت صروحها بعرائش الكروم ، ووشّت دروبها باشجار الغار والزيتون ، واحتضنت في جوفها رميم أسرة صغيرة ، كانت تتألف من أب وأم وولد دفنوا جنباً الى جنب في قبور بيض ترنو نحو القصر بوجوم كئيب ، وتكلمُ وهي خرساء شاباً عربياً يسمى (مصير) كلما أتاها زائراً مطيفاً وهذا ، هو الوريث الأوحد للقصر والرابية ، والبقية الباقية من فواجع هذه الأسرة بمأساة اسكندرون .

مراتع الطفولة

ما كادت الظهيرة تجنح الى الزوال رويداً ، حتى كان (مصير) ينتصب فوق شرفة قصره بشرود ، وفي عينيه بريق غيظ مكبوت ، وعلى وجهه سورة كبرياء جريح ، وهو يرسل الآهات هائمة في الفضاء تارة بعد أخرى ، ويسرح الطرف في انسياب بساتين الوادي هنا وهناك ، حتى اذا رأى اطيافاً من ذكرياته تتلاعب مرحاً في كل منتزه جميل ، بعث اليها سلاماً مع الريح .

وهكذا استمر مسترسلاً في شروده العميق ، حتى امتلأت نفسه مشاعرَ من ذكرياته السارحة في حنايا الوادي ، استرد طرفه مخضلاً بالدموع ، ورنا الى الحديقة رنوات كسيرة كاسفة ، كانت تتنقل من شجرة الى اخرى ببطء وتوان كأن له عند كل شجرة ذكرى . . . حتى اذا احيا في نفسه غابر طفولته عايشها من جديد ، بتأمل واع للحياة وباستغراق ذاهل عن الحياة ، فغدا طفلا أبيض صغيرا ، وتراءى له طيف اخيه القتيل يرتع تحت الاشجار ويراشقه حبات (الزنزلخت) ويعدو في رحب الحديقة ضاحكا ، ويختبىء وراء خميلة النسرين ويناديه قائلا بصوت وديع : اين انا يا مصير . .

وها هنا اعتراه حزن صامت ، وحن الى طفولة الخميلة فتهلل الدمع في اهدابه مرتعشاً ، ثم ما لبث أن تحدر من اعلى الشرفة بسكون ذاهل ، وطاف بين الاشجار على هون ، حتى اذا اتى خميلة النسرين وقف امامها بخشوع رهيب كعابد في محراب ، يرسل اليها النظرة تلو النظرة ، والزفرة تلو الزفرة ، ثم هتف بصوت شجي (اين انت يا سمير . . .) واتكأ على شجرة ، وسرح في انسياق عالم من ذكرياته حالم ومهيب . . . حتى اذا تذكر انه على اهبة السفر تململ متبرماً ، وناجى الحديقة بصوت جريح :

[أي مراتع الطفولة ! أبك حياة تتكلم ؟! أبك حنان يتلهف ؟. فمالك لا ترفين علي رفيفَ اجنحة الطيور ؟ فأنا النازح عنك الى بعيد ، ولمَ لا تدعين أغصانك النضيرة تتعاطف عليّ حناناً ، وتعانقني عناقَ ام رءوم فارقت وليدها الوحيد في شراع يمخر عبرَ المحيط ؟ فان أبي وأمي وأخي من سكان القبور ، ولمَ لا ترسلين الحفيف نغماً عذباً لذيذاً كهمس المحبين ، ليسكن في سمعي عمراً ويدوي دوياً صاخباً ، كلما هاجتني الذكرى الى ربوع اللواء . فتراءت له الاشجار وهي تميل في عصف الريح ، وتترامح شجوا كنسوة ثكالى يندبن قتيلا، فارتعش راجفاً وهتف متألماً : مالي اراك تتناوحين اسى وحزنا ؟ أأنت في حداد على مصرع اللواء ؟ أواه كلانا ذلك الثاكل المكلوم ، فمن لي بمُواس ، يودعني الوداع الاخير . . .

وتذكر الرابية الخضراء ، فانطلق من الحديقة ساعياً اليها، وتسنم صرحها مرتعشا، وجثم أمام الرموس راكماً يرسل اليها النظر خاشعاً ويناجي اخاه بصوت أبح :

« اي سمير ! لقد قضي الأمر . . . وصرع اللواء غيلة بيد الخيانة الفرنسية في هذا اليوم (١) الا تسمع كيف يجلجل الجيش التركي زاحفاً في وادي (بيلان) ؟ فهنيئاً لك اذ أنت غير سميع ، ولكنك سوف تستمع في آتي الزمان الى صوت عربي جديد ، يخاطب عظامك النخرة قائلا : « طيبي مقاماً فليس في ارض الوطن العربي مقام لغاصب او دخيل ، فاني سمعت ارواح شهداء اللواء تتهامس قائلة : سوف تستحيل عظامنا في اجواف القبور الى غرس من نور ، يطاول السماء وهاجا من عام الى عام ، فيهدي الجيل العربي الجديد الى ثغور اللواء ، فنم مطمئناً هادئاً فانك لعلى ميعاد وميلاد الجيل العربي الجديد .

« أي سمير . . كم كنتُ أودّ أن أغدو وإياك بداية ونهاية لمأساة العرب بمصير اللواء ، ولكنّ تلك هي مشيئة الأقدار ، فلن تراني أقف أمام رمسك بعد اليوم زائرا ، وها أنذا راحل وافواج الراحلين !

١ ـ اليوم الخامس من شهر تموز سنة ١٩٣٨

الحقيبة السوداء

استشرف الفجر مدينة حلب مشرئباً بجيده للسماء ، ومشى اليها الهوينى يختال ناشراً جناحيه في الفضاء ، ويرسل اليها رعشات الأضواء فتزهو مخمورة بافترار الصباح ، حتى إذا خطر عليها جذلان طروباً ، أودعها بكورة رطيبة منعشة ، وراح يزحم بقايا الليل أينما اتجه وسار . .

هنالك استفاقت المدينة تنعم جذلى بوديعة الفجر ، حتى حبت الظهيرة رويداً الى عرش السماء ، فأوصبتها بحميّ رعناء من قيظ لافح حبس الريح الرطيب عبرَ الأفق البعيد ، وأمّ العصرُ والريح حبيس ، والجو يلهث تعباً من امتداد الهجير . . فلاذ هواة الراح بالحدائق الغناء ، يبتردون تحت ظلال الدوح الناعم الوسنان ، كذلك لاذ (مصير) بحديقة (الشهبندر) حرّانَ متعباً ، وراح يتفيأ ظلاً لطيفاً امتد وارفاً تحت أفنان دوحة وسنى وفوق مائدة متواضعة ، أقفرت من رنين الأقداح ، وانتبذت من رحب الحديقة ركناً منعزلا خلا من ضوضاء الرواد .

وكأني به وهو جليس نفسه في سكينة شاردة ، وفي عينيه بقايا حلم مظلم مريع ، وامامه حقيبة صغيرة سوداء ، يرمقها بنظرة وامقة من حين الى آخر ، ذلك انه دفن في مطاويها المظلمة شطراً حياً من نفسه مازال يحن اليه حنيناً ملتاعاً ، لشدة ما كان يتحمل مسئولية وجوده كعربي ، ويعاني مصرع عروبته ويكابد فريّ قلبه الجريح ، كبطل تفهم واقع الحياة فتمرد عليه متنمراً ، وسما فوقه سمواً عظيما ، فازدلف إلى مصيره الأليم مقداماً . وكان ينظر الى الوجود نظرته الى مأساة فاتكة ، حتى تشاءم منه متبرماً فكان تشاؤمه مبدعاً

خصيباً ، يريد هدم حياة وبناء حياة .

تلك هي حياة مصير إبان حوادث اللواء ، ترقد في مطاوي هذه الحقيبة السوداء مدوّنة بمسودات رسائل عديدة ارسلها تباعاً الى صديق له أقام في مهجر العرب في البرازيل .

وها أنذا أدع مصيراً في مكانه من حديقة الشهبندر ، وأدحو لك هذه الرسائل في وريقات هذا الكتاب دحيا ، لتستشف من خلال سطورها السود كيف نزلت الحوادث هوجاء بساح اللواء .

القسم الاول

صوت من وجدان الأم

مهداة لواء اسكندرون الى مهجر العرب في البرازيل

أرأيت الى الزنبقة الصفراء تركد في الكأس السوداء، ويدب اليها الذبول شيئاً فشيئا ، وهي تنفح النسيم بشذى عطرها نفحة تلو نفحة ؟ فكيف بها اذا ادركها الذبول بغتة تنام نومة أبدية وتترك بقايا نشرها وديعة للنسيم .

تلك هي صورة أمي الشاحبة العجوز ، تقبع في زوايا المخدع بثياب سود ، وتداعب بأناملها الضامرة سبحة سوداء وتعيش التأمل الشرود ، وتحلم احلاماً عانية ، وتتمتم بالدعاء صباح مساء ، كواجد صوفي جنح الى الوحدة زاهداً بالحياة ليتأمل الحياة .

فمنذ نفر اخي الى الريف العربي بحمله تعليمية ، وهي تساهر الليل في الحديقة وتسامر حفيف الأشجار ، كأن الليل يسمو بروحها جواً فجوا ، حتى تتدانى من الملأ الأعلى تبثه شكايتها حسرى ، فقد كانت تشتكي من همس باطني خفي ، يدوّي في أعماقها دوى الأعاصير قائلا : (ان حياة ابنك تقترب من النهاية)

وطالما أوحيت اليها مراراً وتكرارا ، ان حدسها وليد رواسب دينية استفاقت بنفسها أوهاماً ترهقها بالهواجس الحمقاء ، فما كانت لتؤمن بقولي ، او تطمئن اليه قليلا ، بل ظلت تطارد نفسها بنفسها دائبة في متاهة من العذاب .

وفي هذا اليوم ولجتْ مخدعي باكرا ، وحول محياها هالة كآبة حائرة ، وفي عينيها سهر نام على أجفانها نوماً ساكنا ، فتكسرت أهدابها

تحلم بدنيا الوسن ، ثم ترامت علي تقبل جبيني بحنان مرتعش وتقول بصوت مختلج (ولدي ! سافر الى الريف وائتني بأخيك ، فاني أخاف عليه من دواهي الأقدار) قلت ايغدو سمير هنا بمعزل عن شبا القدر العاني فآبت الى نفسها تفكر بوجوم ، والدمع يتهافت من عينيها مستغيثاً ، ثم هتفت قائلة : (أواه ! لا ادري . . . فرحمة بي وشفقة علي ، سافر . . سافر) فقاطعتها بقسوة قائلا : حسبك لن أستطيع ، فمارت بحيرة بليدة وشخص طرفها للسماء ، ومشت كسيرة القلب حسرى ، ومشى طرفي يشيعها وامقا ، وأنا حائر لا أدري كيف أحدّ من حنانها السليط ، واسترقها استراقا من يقظة أوهامها المضنية ، ثم سعيت اليها بقلب أبيض سعي اليها رضيعا ، فوجدتها قائمة للصلاة تتهجد بآيات الكتاب بصوت رخيم ، كانت نبراته تتسرب الى أذني كترنيم ملك هبط الى الأرض سحَرا .

وها هنا تبدت لي قديسة طهوراً امتثلت للصلاة أمام تمثال العذراء . . فوقفت مكاني مأخوذاً وطرفي لا يريم عنها ابداً ، وهي تبسط يديها للسماء وتناجي ربها برجاء متضرع خشوع : (رب اني امرأة هرمة اوهن الدهر قواي ، فلا تفجعني بولدي كما فجعتني بأبيه من قبل) فتراءى لي والدي في صروح جبل الزاوية ثائراً ، وكأنه يصرع أمامي جريحا بقذائف الجيش الفرنسي ، فارتجت نفسي بالخشوع ارتجاجاً شديداً كحصن مسه زلزال ودنوت منها بلا ارادة ، وهتفت بشعور عفوي : أماه ! طيبي نفساً واهدئي بالاً فاني سآتيك بأخي غدا .

وحين خرجت من الصلاة لاهثة من التعب ، رأيت في نظراتها الوادعة بريقاً غريباً ، خلته وميضاً ملائكياً انبعث الي من حنان السماء مشرقاً من أهداب أمي الرءوم .

مسراي الى الريف

اتـدري لم اخترت الليل ميعاداً لمسراي الى الريف ؟ ولم انتصبت بشرود أراقب القمر وهو يجنح محمراً الى الافول كالخنجر المغموس بالدماء لـكي ارى الليل يوسق ذرى جبل حبيب تحت جناحه الحالك الرهيب، ويتهور الى وادي العاصي مروعاً ، ويتوسد بطاحه ساجيا .

وانا لم اكن لأمتطي صهوة جوادي الابيض الجموح مسافرا ، الا والليل يدرعني بجلبابـه المحلولك المخيف ، فـكأن الليل صاح بي قائلا: سر في سبيلك قدماً فقد اذنت لك بالمسير ، وما كدت أسير بانسياق شارع باب الجسر مدىً يسيرا ، حتى اوغل الضباب بالمدينة زاحفاً ومكث بالشوارع طباقاً ، يؤاخي حلك الليل ويعانقه بصمت رهيب .

فلو رأيت كيف كانا معا يهاجمان المصابيح باغباش كثيفة ، وانوارها تقلص من امتدادها الى بعيد ، وتنير ما حولها بنور غضيض ، لهتفت قائلا : يا لشقاء النور الماني بحلك الليل وكثافة الضباب .

كذلك لو رأيت كيف كان جوادي يختطف الدرب من الأرض ، ويجري جرى الرياح الهاربة من ادغال الغابات ، مشرّع الرأس غازياً عمق الليل ، بقديح ناشط ينبث من طرفـــه الناري ، تخلته شراسا ابيض صغيرا ملأحه مارد من الجن ، وهو يضرب به عرض بحر لجي زاخر بالظلمات .

هكذا كان جوادي يعدو خطفاً وانا سادر ذاهل ، لا ادري اي قرية أقصد، واين أجد أخي سمير ، حتى احجم وازور وصهل، وضرب الارض بحوافره ضرباشديداً ، نفّر الذهول من نفسي فوراً، فاعتراني خوف فاتر ، فارسلت طرفي

رائدا غيهب الليل فرده الي حسيرا ، فجمعت اناملي وراء اذني التقط من الفضاء الاصوات الشاردة ، فلم اكن اسمع شيئاً ، حتى ولا حفيف شجرة تعاني عبث الريح، كأن الريح قد نام او كأنه يتفعل النوم خداعا ، أكان لا يريد أن يروع بهزيزه العريد صمت الليل ؟ أكان لا يريد أن ينهنه بتياره العنيد مراقد الضباب ؟ لست ادري لمَ جنح الريح الى السكون .

وهنا كدت ارتد من حيث اتيت ، لولا اني تذكرت وعدي لأمي لمكزت جوادي بقسوة فتراجع الى الوراء قليلاً ، ونزا بي نزوة جامحة فأدركت من وقع حوافره على الارض ، إنه قفز إلى صعيد قريب طري، فجاذبته العنان بشدة ، فجمد مكانه يحمحم حمحمات جرّحت هدأة الليل ، فترجلت عنه فورا أحدق بالارض تحديقاً حاداً ، حتى تراءى لي بصيص ماء يتماوج كالمرآة السوداء ، فتيقنت اني نزيل غدير مجهول، وأني ضليل الليل ، فتساءلت بحسرة مريرة ، اين انا من الليل . . . ؟ أين انا في الظلام . . . ؟ واتكأت على جوادي اقترب من الليل ، وأعايشه كأن حي ، ولليل بنفسي حياة عميقة الجذور فانه معين احساس فياض يروي نفسي الظمأى لتأمل واعٍ يقف ثابتا امام أحداثي في الحياة .

وهكذا كرّت علي الساعات تترى، الى ان عسعس الليل ، وتنفس الفجر ووثب الى السماء يتألق بتباشير النهار ، وهب الريح عاتيا يكش مراقد الضباب ، ويبعثرها حائرة هنا وهناك، حتى اذا تبدى لي من بعيد هيكل قرية صغيرة كانت تنام على تل شامخ عشيب ، جنحتُ اليها والشمس تودع الافق بنظرة حسرى ، وترنو الى عرش السماء رنوة جذلى.

وهنالك قيل لي ان مفارز من الدرك السوري طافت قرى الوادي ، ولملمت افراد حملة التعليم بقسوة ضارية وتعذيب مرير ، وآبت بهم ليلا الى انطاكية مطوقين باسنة الحراب . . . وهكذا آبت حملة التعليم الى مستقرها أوبة السيوف الى اغمادها بعد ما تراقصت طرباً تستقبل قتالاً نبيلا .

انين الدوح

استرقتُ وعيي من النوم باكرا ، وأنا احس الأسى ينسلُ المسرة من نفسي نسلا ، فتتفتح للتشاؤم حسرى ، كبرعم ورمة بيضاء يتفتح للصقيع ، ولا أدري لذلك سبباً ولا أين امضي بنفسي حتى مضت بي الى مخدع اخي فالفيته نائما وعلى ثغره ابتسامة نائمة ، فأودعت محياه نظرات الحنان، وغادرته تواً الى الحديقة ، اروح واغدو بين عرائش الورد وخمائل النسرين كاسفا كئيبا ، والنسيم يخطر فوق ازاهير (الغريب) هادئا فترتعش لخطره ارتعاش جريح محموم ، يتقلب موصبا بحمى الجراح .

وفجأة هب الريح شماليا عاتيا، يحمل برد الثلوج القابعة على ذرى (اللكام) ويعصف بالدوح عصفا عنيفا ، ويدور حوله بعويل صاخب شديد ، ويتغلغل بين هياكل الاغصان صافرا ، والدوح يميد هائجا كالمجنون ، ويترضرض صارخا كالجريح، ويجود بأوراقه جزافا ، فتتساقط هنا وهناك طائشة كنديف الثلج في دوران زوبعة هوجاء ، وتتقلب على الارض حيرى ، وفيها من الهزال ضموره الحزين، ومن الموت اصفراره المخيف.

وحينما كان غضب الريح يسكت عن الدوح قليلا، كنت اسمع له انينا خافضاً فأسائل أكان الدوح يشتكي عبث الريح؟ام كان يبث انينه معبراً عن مدى آلامه وهو يتعرى شيئا فشيئا من قميص الربيع ؟ ام كان يتوشح بوشاح الخريف حزينا ؟ ام كان يتحسس قسوة الريح الموصب ببرودة الثلوج ؟ فيتألم ملمالاً ويرسل شكواه انينا خافتا . اني لأخال للدوح دنيا من الاشجان، ولكن لست ادري الى اي مدىً يشعر بمآسي الوجود .

وهكذا كنت افكر بمآسي الدوح وما ينتابه من تعب وعناء، وكدت

استغرق في تفكيري لولا ان نغمة شاردة بين هياكل الاشجار تناديني قائلة مصير . . مصير . فتلفت الى القصر فرأيت أمي تطل علي من النافذة بوجه شاحب عبوس كوجه الخريف وتقول بصوت واهن ضعيف: استرق اخوك نفسه بغفلة مني وتسلل هاربا ، ادركه ولا تدعه يواكب صخب المتظاهرين فجو المدينة مهتاج ومحموم . . .

فانطلقت مسرعا افكر بأخي واكبر اتجاهه القومي اكباراً فانه آمن بالقومية العربية ايمانا شديداً غيبه عن مأساة الوجود فغابت عنه الى حين .

نزوة السيوف

ماكدت اقترب من ساحة الجسر حتى دوى باسماعي صخب التظاهر الشعبي دوي السيل متهوراً من أعالي الجبال متصوباً الى مسارب الوهاد ، فأخذت اتخيل كيف أن الشعب العربي ينزو الى قراع الجند الأفرنسي نزوة السيوف من اغمادها في حلك ليل دامس بهيم ، وأحث خطاي على المسير حتى ادركت ساحة الجسر وهي تزخر بالجموع كالبحر في تزاخره بالأمـــواج .

أرأيت الى الأسد يتحفز للوثوب غاضبا ، كيف تشتعل في دمائه حمى من الهيجان ؟ وكيف يبدو مهوباً مروعا ؟ هكذا كان الشعب العربي ينتصب لنزال الجند كالأسد متحفزا ، ويموج مزبـداً كالبحر هائجا ، ويترنح رامحاً كالبواسق في يوم ريح عاصف ، ويتصارخ بأصوات مرعبة كصليل السيوف ، تدوي قائلة « الموت لمن ؟ لقرار جنيف ! الموت لمن ؟ للمستعمر الخئون ! حتى اذ الهب حماسة مستهترة بالموت ، بدأ يناوش الجند مكرراً مفراً ويراشقه جذوات المتفجرات . . .

ارأيت الى الجو غائماً مكهربا يهتز بقصف الرعـود ؟ كيف يرمي الارض بصواعق طائشة تنقض هنا وهناك . هكذا كانت قوى الجيش الافرنسي تنازع الشعب الأعزل هوجاء كالسماء الغضبى ، وتقذفه بحمم طائرة تبرير بالفضاء بربرة الأسود في الغابات . وتزحف اليه بجلاميد من الحديد تمور بالسعير ، وتتصارخ بالسنة من لهيب ، والموت يتقدم زحفها رامحاً رمحة البرق فوق اديم الغيوم ، ومدثراً بعلم المدنية الافرنسية ، وهـو يجندل شباب العرب صرعى وجرحى . . .

وكأني بتلك الساعة الرهيبة الدامية ، أخوض لجج هـذا الهـول ذاهلا عن الموت، وأرى أخي حميلا على أيدي صحبه ودمه ينزف غزيرا . فأقف أمامه مخلجاً كالطائر الذبيح يترنح بالنفس الأخير حتى تهاوت قـواي ومادت بي الأرض فلم أعد استطيع الوقوف ، وكدت أغيب عن الوجود لولا ان همسـة أسرت في اذني قائلة : تجلد تجلد . . . فقتيل العرب بمواقع الاستشهاد ليس بقتيل ، بل هو حي في دماء الجيل العربي الجديد .

وكذلك أمي شاهدت سميراً محمولا على الأكف ، فصرخت صرخة ذعر شديد وانتفضت انتفاضة المحتضر في النزع الأخير ، وهـوت على الأرض هوي شجرة حطمتها العاصفة وتركت فيها بقية من حياة .

احتضار السيف

همس الطبيب بأذني قائلاً بأسف مرير : لا أملَ لديَّ بشفاء أخيك ابدا ، فمشعل حياته يخبو رويداً رويدا ، ولم يبق له من الحياة سوى دقائق معدودات ، ثم يرسل النفس الأخير أبيض للسماء .

فدنوت من سريره اسوانَ كئيباً ، واودعت محياه رنوة عبرى ، وهو يجود بحشاشة روحه هادئا ، وقد انتصبت حواليه صفوة من رفاقه بخشوع موحش رهيب ، انتصاب التماثيل ، ولكن بوجوه كظيمة مسودة من حلك غيظ مكبوت ، شابه حزن بالغ محرور ، وأعين شاخصة اليه بنظرات خرساء كادت تهمي بالدمع الهتون .

وما أن فاه بصوت واه ينادي « أماه أين انت : حتى حدبتُ عليه والقيت بأذنه همسة ناعمة ، اربدَّ لها وجهه اربداداً وتحرك ثغره يتمتم بالغموض وسكت سكوتاً مديدا ، وصدره يعلو تارة وينخفض اخرى ، وهو ينظر الى الوجوه بطرف زاحف كان يتنقل من وجه إلى آخر بعناء حتى اذا نظر اليَّ نظرة مستطيلة تهللت اهدابه بدمعة ناطقة وفاه بكلمات متعبة ، تسللت من فمه باعياء ، وتلاحقت حروفها وراء بعضها ببطء وتوان فتجمعت بأسماعنا وكانت . . . وداعاً يا رفاق . . . وراح يئن أنيناً متقطعاً كان يتدرج من انة لاهثة ، الى انة خافتة ، الى أنة خفيضة . . حتى مات أنينه وسكن صدره ، وتبلور بصره شاخصاً للسماء .

هنالك خاض الأسى نفسي يفتش عن صورة أنجلي بها على الناس بغير الدموع ؛ فلم يجد الا السكون الموحش الرهيب ، فدثرني بدثاره الكئيب ، وكان موقفي من الموت فيه كآبة من كآبة الصخور

السماء وفيه سكون من سكون الجبال الجرداء . وأما صحبه فقد اجهشوا بالبكاء ، وأفرط بعضهم ، فكان عويلا وكان نحيباً وكان ندباً مراً كندب النساء الثاكلات .

وهكذا شيعت دموع الأسى وصيحاته المتعالية روح أخي الى الملأ الاعلى ، فتركت أمي طريحة الفراش تعاني جنون حمى دماغية ، وتهذي من حين الى حين « ولدي سمير » . . رباه اين سمير أقتل . . ؟ ام هو جريح . . ؟ رباه أهو ما زال حيا . . ؟ .

* * *

تلك هي مأساة وجودنا كعرب بدثارها الاستعماري قد مثلت بأخي جنون الحياة ، وهاهي تلهو بمصرع أمي وتتضاحك مني قائلة . . هكذا أنا . . أفهمت من انا ؟ أنا عذاب وبيل . . فهل لك ان تناصبني العداوة والبغضاء ؟ ان فعلت . . . فأنت عربي .

مثوى البطل

ما كادت الضحى تقترب من الهجير قليلاً . حتى تواردت عليّ أصاحيب سمير زمراً زمرا ، وتجمعت حول جثمانه بصمت خاشع مهيب تنظر اليه نظرات خاشعة غنية بوميض الاكبار والتعظيم . فما كانت لتريم عنه ابدا لولا ان شابا صرخ قائلا « ان سميرا كان فينا كالسيف ماضياً وهـا قد غاب عنا غياب السيف الكليل في ظلمة غمده مخضباً بالدماء ، فهل لكم ان تكرموا مثواه وهو دفين بالتراب ؟

وقال آخر أجل إنه لجدير بالتكريم والتبجيل ، الم يستقبل الموت بطلا مقداما ، وقال آخر . . لنشد له قبراً شاهقاً عند مصب العاصي يطل على البحر وهو يقارع بأمواجه الهوج جلاميد الصخور ، لكي يرمز قبره الى الصراع الأبدي بين البحر والصخر ، فقد كان بنفسه دفقات جامحات من عناد البحر ، وبأس أصم من صلابة الصخر . وقال آخر . .

« واروه في أعلى ذروة من جبل حبيب ، يطاول إباؤها مسارح الغيوم ، لكي يرمز مقامه لسمو السماء وانفة الجبال فقد كان بنفسه قبس من هدى السماء ونفحة من شمم الجبال .

وقال قائل « ادفنوه في كنف الجبل ، واغرسوا حول ضريحه نخيلا كثيفا يشرع للسماء وارفا ، كي يرمز قبره للحنين الى مطارح الصحراء فقد كان يحن الى الجزيرة وربوع الفجر العربي » .

وقال آخر وهو كهل بمواطفه . . أرمسوه اينما شئتم من الارض وأكرموا مثواه بأفواج من الشهداء ، تتقاطر على دروب الفناء تترى فاني سمعت حرية العرب تقول وهي جريحة « ان دوائي الوحيد دماء الشهداء » .

هنـالك أصيبوا بنوبـة من الوجـوم المفكر السبوح ، وآبوا الى انفسهم حيارى لا يدرون ماذا يصنـون . . حتى صاح بهم قائل بصوت جهير : تعالوا الى الرابية الخضراء نرمسه الى جانب قبر أبيه ، فقد كان له ضريبا بالشكيمة والبطولة ، فردوه الى منبته الخصيب .

* * *

وهكذا شيع جثمانه الى الرابية الخضراء بموكب حافل بالهيبة الصامتة والوقار الرزين ، ولحد في جوف الرابية والدمع ينهمر من الاعين صبيباً كلما انهال عليه التراب حفنة تلو اخرى .

وكذلك لحقت بـــه أمي غـــداة مصرعـــه فشيعتهـــا الى الرابية الخضراء بعين عبرى وقلب مفجوع . . وهناك جاور ترابها الكريم تراب وليدها الشهيد .

الليل العاني

أرأيت الى قبيلة زنجية تتسلل من مدار الأفق رويداً رويـــداً ، وتزحف في سهل رحيب صفاً صفاً ، والجو غائم عبوس يتجهم للأرض مربدا ؟

هكذا أقبل علي الليل ؟ يدب على الارض دبيب الاشباح ، وأنـــا منتصب فوق شرفة القصر ، وفكري شتيت وطرفي هائم في رحاب السماء وهي تنوء بغيوم دكناء تغيم ذرى جبل حبيب غياما ، وتلامس الصروح بأذيال ســـوداء تفيض على السفوح ماءً نميرا ، والبرق يترامح هـائجاً ثائرا ، وينذر الأرض بعذاب من السماء شديد كأنه عربي جاهلي يعلو صهوة سابح جموح ويعدو به خطفاً بين المضارب السود ، ويصرخ منذراً بمقدم غزو هائل مخيف .

ولو رأيت كيف كان البرق يناوش حلك الليل بسهام من نـار ، تتهاوى عليه تترى ، فيتجمـــع على نفسه هلوعاً بلمحة طرف ، ثم ينطلق باسطاً جناحيه من جديد ، وينتظر كلمة الرعـد ، لأشفقت على الليل حادباً وهتفت متألماً : رباه لم هذا الليل يُرهق بجنون السماء .

و لمـــا رأيت الليل منهوكا مرهقاً ، ينصت ملمالا الى هزيز الريح . كلما جاس أعماق غياهبه متعسفاً عاتيا ، خلت أني صنو لهـذا الليـل العاني ، وهو يكابد جنون السماء وحيدا ، وأنا أعاني وحشة القصر فريدا ، وكأني أسمع من الرابية الخضراء صوتاً شجياً يناديني قائلاً : أي مصير . . هلم الى نجوانا مهرعاً فحسبك ارهاقا من وحشة القصر .

ولو رأيتني كيف كنت انطلق الى الرابية بجاذب خفي ، أدافـــع الريح معاندا ويدافعني بعتو ، والمطر يتصبب عليَّ غزيراً ويضرب وجهي تضريباً اهوج شديدا لناديتني مشفقا : عد من حيث أتيت ، مالك تتهرب من وحشة القصر الى وحشة القبور ألك في نجواها ملاذ مؤنس ؟ فيالك من بائس معذب عنيد .

نجواي للرموس

أرأيت الى الناسك الصوفي يتعبد متوحداً في معبد مهجور ، كيف تسري بنفسه رعشات الخشوع ؟ فيغدو اما واجلا من رهبة الكون واما مستأنساً بعظمة السماء .

هكذا جثمت أمام الرموس خاشعاً ، كالمتهجد سحراً ، وأنا اشعر بنفور من وحشة الليل واستأنس بوحشة الرموس ، والبرق يومض وميضاً ينهك ظلام الليل فينفض عن مثواها من حين الى حين ويرتد اليها مسرعاً ، حتى اذا ناجيت شطور نفسي شطراً بعد آخر احسست أني في عالم حالم جديد ، هو بالأشجان رائع وجميل ، واليك نجواها رمساً بعد آخر .

أي سمير : يا قتيل الظلم . . أكنت تدري من أنت في واحة الشباب ؟ أنت غرسة من نخيل ، تفتحت باكراً للحياة وتهللت سكرى بقطرات الندى ، وكادت ترسل الفوح منعشاً ، فأتاها لافح من قيظ محموم فجنحت للذبول قبل أن تفوح . .

فعجيب أن أستاف من تراب قبرك شذى العروبة بكراً ، أأنت فوح من طليع الجيل العربي العتيد ، ان لهذا الجيل شذىً غريباً ، أكنت تدري أنك من اضرابه المتفوقين ؟ هكذا غدوت أراك ، فهنيئاً لك بمصرعك العظيم وبا لهفاً علي ان لم احذ حذوك قدما .

« وأنت يا أماه يا قتيل الحنان » ! ! أتدرين ما خلفت بعد رحيلك عن القصر ؟ لقد خلفت وحشة كئيبة مروعة كوحشة الجبال الثاوية على دروب الصحراء ، فمن يؤنسني من بعدك وسمير أمسى في ظلمة القبور

أكان سمير في دنياك كوكباً منيراً يهبك روح الحياة ؛ حتى اذا أفل عن سماءك غاض بهاؤك ، ونضب معين حياتك وتراميت في هاوية الفناء كشجرة يابسة تنتظر النار ، فيا أسفا على نفحة من حنانك يا أماه تهب علي أنسا كلما تجهمت لي مأساة الوجود .

« وأنت يا أبتاه :

اني ما زلت اذكر جيداً يوم جئتنا من مواقع البطولة مدرعابالقذائف والحديد وجاءتك أمي تصب عليك اللوم صبا . . . وانت تقول : دعيني اقارع المستعمر الافرنسي دائبا ، أتخافين علي من الموت ؟ والحياة تهمس بأذني قائلة : اني لاهب الغصن رطيبا نضيراً ، كي استرده مهشما محطما ، وان عففت عنه الى حين ، امسى هيكلا من تراب يتمشى على تراب ، وهذا ارذل العمر فلن ابلغ نهاية العمر المرذول .

أبت : أتدري كيف تخايل سمير للبطولة ، أرأيت الى الفجر الواثب الواثب للسماء وراء الغيوم البيضاء كيف يرسل بهاءه احمر كالدماء ؟ هكذا كان ينير علي بضوء بطولته كبهاء الفجر ، ولو رأيته بطلا لاخذته الى صدرك فرحا وأنت تقول : ذرية بعضها من بعض فرعها قبس من ذلك الفجر الصحراوي ، فجر تاريخنا العربي .

مصرع البطل

لقد استلهمت مصير سمير فقال لي وهو صموت :

ان انسراح حياتنا باتجاه الزمن يبتدي من الولوج وينتهي بالانطلاق ، لذا كان المدى الزمني بين الولوج والانطلاق وجوداً بادراك الحيـاة الوجدانية وهذا الوجود يبدو لنا ظلاماً وعدما ، ظلاماً كجنة ليل ، وعدماً كسراب يجري في متاهة من ورائها متاهات ، ونحن نوغل في لجج مهالكه كرهاً ونخرج غصبا ، لذلك وجب علينا ان نعايشه بتمرد جامح اشبه بتمرد بطل اسطوري ، ونغادره بشجاعة نادرة كشجاعة فارس مغـــوار ، ذلك ان الوجود بمرأى الفكر النفوذ مأساة فراسة ذات نيوب حادة ، تنهش من طامن للسرور وتفترس من هادن الشقاء .

لهذا كان التمرد على الوجـود رد فعل ثائر على مأساته ، فمن كان ذا روح خنوع يستسلم لمأساته يائساً قنوطا ، فتقبض على أعنته وتقوده الى التشاؤم القاحل الجديب ، فيتهاوى قسراً من غور شقاء مظلم الى درك شقاء عديم ، حتى اذا اخرجته الحياة من الوجود ركلاً وطرداً ، تعاوى مع نفسه تعاوي الذئاب الجرحى .

ومن كان ذا روح عنيد جبار يتمرد على وضعه متنمراً ، ويقارع مأساته دائباً ، وهو يدري ان له مصيراً واحداً هـو المـوت ، فيغادر الوجود بطلا ويغدو قدوة حسنى للأجيال القادمة .

لنتساءل ياصاح ، لمـاذا يأبى الروح المتمرد الثائر الا قـراع مأساته وفي قراعها الخطر الأكبر ؟ ذلك ان القراع بذاته وسيلة يعبر بهـا البطل عن فيض حيويته وعن مدى قدرته على تبديل أوضاع الحيـــاة الركود ، وهو يخلق لنفسه بالقراع المستمر امتداداً راسخاً في دنيا الحياة .

فالبطل من يتمرد مقداماً على أوضاع الحياة الملأى بالفساد ، باندفاع واع مهتاج حتى يلتقي ومصيره الأخير إما ظافراً واما مدحوراً ، ذلك أنه يريد أن يخلق وضعاً جديداً لحياة جديدة ، او يترك منهاجاً جديداً للخلق والابداع ، فارادة البطل قبس من شعوره بالحرية وهذا الشعور ينبوع بطولته الجموح ، وهي التي تدفعه دفعاً قوياً الى تقرير مصيره عند هوة الموت ، فيزدلف الى الموت بدافع ذاتي خفي استجابة لارادته، ذلك أنه يتحسس البطولة تمور بنفسه ، وتتطلب الاتيان بعمل جبار عظيم

فاذا كان البطل مندفعاً بجموح طاغ الى تحقيق ارادة مثلى ، تتمرس له العثرات الكئود ، فتقوده عاثراً الى نهاية مصيره فيغدو وهو يموت شبيهاً بالنسر الجريح اذ يأبى ان يطير زفيفاً فوق أعالي الأشجار كطائر عادي ، بل يتصاعد بجرحه المميت جواً فجواً ، حتى اذا خارت قواه يتهاوى من كبد السماء الى الأرض ميتاً ، وبذلك يستجيب الى غريزته الفضلى ، ويحقق تمرده على الموت متمرغاً بالتراب كما تموت الطيور الجرحى.

لنتساءل ياصاح ! بماذا يحقق الرجل العادي ذاته في الحياة ؟ اليس باذعانه للحياة الخاملة الكسلى ، وبمطامنته لمأساة وجوده ، ذلك أنه يشعر بالوهن والعجز شعورا قوياً ، فيرى الخنوع للأمر الواقع امراً قسرياً لا مفر منه ابداً فيساق الى نهاية مصيره انسياق دابة مسلوبة الارادة الى الذبح ، فيغدو وهو يموت اشبه بالفيل اذا جاءه الموت ، يرتجف هلوعاً وينادي الفيلة بصوت أبح لتسارع اليه وتلتف حول مأساته ، كي يلتقي ومصيره المؤلم مستأنساً بعبرات الآخرين ، فبئس هذا المصير العديم.

فاذا ظللت يا صاح بعيداً عن شقاء الوطن العربي، تستهلك غضارة الحياة فاكهاً فاني ابشرك بمصير الرجل العادي بمصيرهو اللامصير، فهيا اقتحم مهاول الخطوب ، فان الحياة لا تريد من وراء وجودنا غاية مثلى فلم لا نخلق لوجودنا غاية عُزّى ، ؟ الا وهي تحرير الأمة العربية من العبودية فان لنا بالموت نهاية حياة وبدء حياة .

القسم الثاني

عروس الخليج

اذا كان لك في مجاهل الأيام زيارة لمدينة اسكندرون ، فترى كيف حطها غابر التاريخ في منحدر السفوح نصباً تذكاريا قديما ، يومي الى عظمة مشيدها الأول (١) ، منذ كان سيد العالم القديم ، وهي ترنو الى مياه البحر رنوات ضاحكات ، كفادة حسناء ترمق محاسنها بالمرآة بدل واعجاب ، وتستقبل تزاحم الأمواج في رصيف شارع وسيع ، امتد فوق الشاطىء مستقيما مديداً ، يزدان ببنيان مزخرف نضير ، وثب من اديم الأرض متينا قويا ، يستعد لتضريب الأمواج والبحر هائج عربيد .

كذلك ترى من حولها الحدائق الفيحاء تجري فيها الغدران انسيابا ، وتروي المروج جزافا ؛ ثم تحتضر عند سيف البحر بلا ضجيج ولا عويل احتضار فقير محروم في كوخ حقير ، وترى فوقها الجبال الشماء تكاد تلامس مسارح السحاب ، وتراقب مخر الجاريات وهن يراوحن ويغادين جريا من معبر الخليج وتخفض من شموخها الصرح تلو الصرح حتى تحتضن بأطرافها مياه الخليج فيبدو بحيرة ساجية ركدت آمنة في بطن واد سحيق ، ومع هذا فهي تلتف حول المدينة غربا وجنوبا بارتفاع شاهق وانخفاض متئد ، ولا تدع لها منفذا من الجنوب سوى واد مخضوضر مريع (٢) كان في غابر الزمان واديا تاريخيا ، شهد زحف الجيش المكدوني الى الديار السورية واستمع الى جلجلة جيش السلطان سليم غازيا البلدان العربية .

* * *

«١» اسكندر المكدوني

«٢» هو مضيق بيلان

ولما كان لهذا الوادي أهمية حربية تشوفت اليه الدولة التركية بعين استعمارية جائعة ، ثم جنحت الى عصبة الأمم في جنيف تشتكي زورا من التعسف العربي على الاقلية التركية ، وتدعي ملكية لواء اسكندرون .

ولكن أتدري كيف كان ادعاؤها الخاطل امرا دوليا هاما اهتزت له دول عصبة الأمم فتمخضت عن قرار جنيف ؟ لقد تم ذلك بالتآمر الافرنسي الدولي بعد مالمست ندوات جنيف غارا مظلما تأوي اليه ضواري الاستعمار وفيه تفترس حقوق الشعوب الضعيفة ، وتتناوح عليها مكرا وخداعا ، تناوح الرياح في أدغال الغابات ، وهي عذابها الوبيل وبلاؤها المستديم .

قفار وجودي

أرأيت الى النسر الهرم يتهالك فوق ذروة جبل أشمّ ، ويحدق بالاغوار واجماً ، ولا يرسل طرفه غازياً مطارح النجوم ، فحرى بالنسر إن كان مبيض الجناح ، أن يزول من عالم الوجود أو يغدو محلقاً في عنان السماء منقضاً في مهاوي الوهاد ، فالركود عار ولو في قمم الشامخات .

هكذا أراني كالنسر المكسال راضياً بمكانه من ذرى الجبال وأنا أسبر قفار وجودي قفراً قفرا ، فلا ارى سوى عين ماء باردة تنساب هونا ، وتريد أن تجمل دنياي روضة غناء .

تلك هي (نيراز) تفجر لي من قفر وجودي ينابيع المسرات ، وتنتهل من مناهل أشجاني اكواباً دهاقاً ، وتروم أن أغدو لها معبداً خالياً من زحمة العباد .

وكأني بها جليستي في ركن منعزل وفي عينيها رنوة الحب ووجهها وضاح يضيء ساحراً كبهاء الغروب ، وهي تقول بصوت عذب رخيم ، كأن نبراته ألحان سكرى ، انبعثت من قيثارة السماء .

أي مصير ! : بعد ما علمتُ كيف ألمت بك مأساة أخيك ، وكيف فجعت بأمك ، وددت أن أسعى اليك سعي أم رءوم دوى في سمعها بكاء طفلها الرضيع ، لكي أشاطرك الأسى وأعاني ما عانيت . . ولكن وضعي كفتاة حال دون مسيري اليك ، فعفوك يا مصير . . .

أواه ! كم أنا مشوقة اليك والى . . . والى . . . أتعود بنا الأيام كما كنا بالأمس أم أن الدهر قلّب خئون ، لا يعيد ما طواه من مسراتنا في مطاويه السود .

أي مصير ! ! : لم لا تكون دائماً قربي ؟ فان بقاءك وحيداً في

انطاكية يمض فؤادي ويرمض نفسي ، فبربك سارع الى اسكندرون تجدني بانتظارك لهيفة صباح مساء .

. . .

ارأيت كيف يشع الحب ساطعاً من خلال هذه السطور وينطق منها الحنان صارخا ؟ تلك هي فقرات من رسائل نياز وأخالك تجهل من هي نياز ، انها ابنة (تيمور) سيد نادي هاتاي وكبير المهوسين بالفكرة الطورانية القائلة بأبادة عروبة اللواء . .

أجل هذا هو والد نياز عدوي المبين . فلست أدري ما يكمن لي وراء الأقدار من عداوتي لتيمور وكلفي بنياز .

أميرة احلامي

ارأيت الى البنفسجة تتفتح للحياة نشوى على ضفاف غدير ، واشعاع مقلة النور يقبل أوراقها المخضلة بعبرات الندى ، كيف تنفض عنها خمول الكرى ويشيع فيها الصفاء والسرور؟

تلك هي نياز في قميص النوم ترسل النشوة سكرى والعذوبة بكراً فتغدو للأنفس الحالمة مسرة ، وللقلوب الواهمة ملاذاً عذباً .

واني لاذكـــر يوم برزت لي باكراً بقميص ازرق حريري ، يشف عن نهد كاعب تدلت عليـه زهرة بيضـاء ، وآخر حالم رجراج يتشوق ظمآن الى ثغر ولد رضيع ، اني نسيت وجودي كأني كائن علوي ليس بانتظاره قدر عابس ولا مصير مجهول . واذكر الآن مخموراً بذكراي حين ناجتني تغريداً بانشودة هواي، انها استرقت نفسي استراقاً رشيقا من يقظة وقعي، فأحسست كأن صوتها الرخيم اذ يرن بأذني أنغام علوية شردت من جنان السماء.

ولو أهلت عليك تتهادى بدلال غنوج ، ومن ورائها البحر يتداني بأمواجه من الشط ، وشعرها الأشقر يترسل رقراقاً تحت أشعة الشمس وبداعب جيدها الغض ، لحسبت شعرها اذ يتماوج برقة ولين خيوطا ذهبية أرسلها الشفق الأحمر هـدايا للأرض ، وظننت المـوج اذ يتداني من الشط رويداً رويداً مفتوناً بسحر جمالها السماوي .

كذلك لو خطرت أمامك تختال تيهـــا وترنو اليك رنـوة الحب ، وثغرها العذب يفتر مشرقاً ، لتوهمت أنهـا المثال الأعلى للجمال الملائكي أمَّ الأرض جسداً رائعاً لأغوائك بعبادة السماء .

تلك هي نيـــاز أمـــيرة أحـــلامي ، استهـــوتني استهـــواء قسريا بروعة بشرة كافورية وهبت وجهها النضير رونق الجمال الحزين ، وأخذتني أخذاً بفتنة مقلتين خضراويتين مكث فيهما الحلم شارداً والذكاء وقاداً ، وسحرتني سحراً بجاذب جسد ريان، فيه للعين متعة ذاهلة وللبنان ارتعاش لذة حالمة .

العظمة المتصدعة

وقفت مساءً انتظر لقاء نياز في شارع الخليج ، وزوارق الصيد تتوارد الى الشاطىء سراعا ، كالأطيار الهاربة من نذر الأنواء ، والشمس تلملم شعاعها الذهبي من صروح الجبال وتكاد تجنح به الى الأفول ، ولكن حين تبدت لي نياز لم أعد ادري كيف سارعت الشمس الى المغيب ، ولم يعد عندي للزمان وجود كأن فكري يحيطها بهالة من الأنتباه الشديد ويذهل عن كل ما في الوجود .

ولما ازدلفت الي تتثنى بمرح طروب وتهفو هفو النرجس في أدراج الريح تلقيتها ضاحكا طروباً وبقلب واجب ، وصافحتها بيد راجفة كانت تتلقف أناملها الريا بشوق جائع مهتاج .

ولما سرحت بنا الهوينا على مرج الغدير ، وساعدي يلف ساعدها البض مرتعشاً ، وهي تميل علي ميلان غادة سكري بخمرة معتقة وعتمة العشاء تسبل علينا اول ستر من غرة الليل ، كنت استاف من نحرها فوح هواي ، فأترنح جذلان فرحا ، فيذكي ضرام وجدي بلهب جديد .

وهكذا عايشتها لحظات حالمات وعايشتني تلك اللحظات ، حتى شارفنا شق الجبل وضوء القمر يتهادى على المرج كموج البحر يطامن للسكون

وهنا مضت نياز ترتع بين الأعشاب ، فأخذت أتأمل من بعيد كيف تصدع الجبل من أسفله حتى نهاية صرحه ، واستغرقت في تأملي ذاهلا حتى آبت الي تقول :

مصير . . . انظر الى هذه الزهرة كم هي جميلة ؟ إنها من غريب

الأزاهير قلت:

انها انتفاضة لنهاية فصل الخريف ولكل شيء في الحياة له ابان نهايته انتفاضات ، فهل أنت انتفاضة لجمال فتيات اللواء ؟ فقهقهت طروبة وقالت نشوى :

وانت يامصير ماذا ترى في شق الجبل :

— رمزاً للعظمة المتصدعة

— أتراه شبيها بك ؟

— في التصدع فحسب

— بربك قل لي ما الذي صدع عظمتك، اهو الحب ؟

فتجاهلت سؤالها ، فآضت الى نفسها تفكر ثم قالت : أراك موزع القلب منذ قتل اخيك ، تبت أيدي قتلته الآثمين ، فراحت تنظر الي نظرات وامقة حزينة . . ومصت تقول : هيا بنا نعد . . . فقد طال بنا المكوث

* * *

وهنا اوشك القمر ان يغيب . . . عدنا والصمت يرافقنا خطوة خطوة حتى شارفنا شارع الخليج فمضت في سبيلها تقول : الى الملتقى يا مصير.

فوقفت أشيعها وامقاً وهي تغيب في ضوء القمر كما يغيب شراع ابيض في عرض البحر .

الليل الأزهر

كان الليل في الهزيع الأول يتجهم لي محاولا معتكرا ، وأنا في ركن موحش من شاطىء البحر ، حتى اذا امتد بهيم الليل الى الهزيع الثاني يتمطى بالظلام ، أطل علي القمر من وراء ذروة الجبل خجولا ، ورنا الى مياه البحر رنوات العذارى الى مفاتن شاب رشيق ثم حبا الى عرش السماء وارسل أضواءه تراقص الأمواج وتفضض نهودها من حين الى حين . فتبدو وهي تمور نهود فتيات عذارى يتلاعبن سكارى والقمر بمرآهن فرح نشوان كشاعر غجري .

ولو رأيت كيف غدا الليل أزهر ساكنا ، فيه يسرح الطرف في رحاب السماء ، سرحة سابح في مطاوي البيداء لتساءلت قائلا « أفي هذا الليل الشعري الحالم يلذ للعاشقين نجوى الغرام ؟ قد تحلو في سجوه النجوى قريبا من الشاطىء ، لو ان البحر أخذته غفوة من النوم ، فهدير الأمواج يوحش أنس الليل . ثم لتمنيت ان تهدأ الأمواج قليلا عن نزاع الشط كي ينعم الليل بجلال الصمت ، فصخب البحر يروع مراقد الصمت.

وعند الهزيع الأخير من هذا الليل كنت أساهر صخب البحر ، وبنفسي حسرات من كبواتي في دنيا الأهواء فقد بدأت أشعر أني سيف ماض وميض ، حبس قسراً في غمده وألقي مهملا في زوايا النسيان وأريد ان أراني كما أنا بمرآة الأعمال .

* * *

ان من كان ثاويا في وادي « بيلان » ، يرى للشواهق عظمة ترهب وتخيف ، فيرتاع من سموها للسماء ، فان كان جبانا توارى خجولا في

في ظلمة الكهوف ، وكل ضئيل يشعر بسمو الآخرين ، ومن كان منتصباً فوق أعلى قمة من جبال اسكندرون ، يتدانى من نفسه فسيح البحر ، فيرى الماخرات العظام في عرض البحر ضئيلات حقيرات ، وكل سام يتحسس ضآلة الآخرين ، أما أنا فلن أرى من أعماق وهادي شيئاً عجباً وعظيما ، ولا بد لي من يوم فيه أتسلق جبال المجد ، فاذا تهاويت دونها وأنا في منتصف الصروح ، فحسب عيني فخراً وهي تموت أنها تغمض أجفانها الأغماض الأخير ، على مرأى ذرى المجـــد وموعد مع الخلود .

نداء التراب

أرأيت الى النسر تغيمه ظلمة السحاب غياماً شديداً ، فتحجب عن بصره مرأى قننه الثاوية على رؤوس الجبال ، كيف يرتاع مذعوراً ؟ فهو متصل بالأرض وان غدا مطاولا أعنان السماء .

هكذا أراني محلقاً بأجواء المثال وبي جنوح الى دنيا التراب ، وبي ارتياع من التراب،فكيف استجيب لارادة نياز بالاقتران ، وفي الاستجابة ارتباط بقدسية الزواج يليه التصاق بالأرض وتلبية لنداء الاطفال ، وفي التلبية تضحية والتضحيةزوال رخيص، فكيف أبيت أسيراً لنداء التراب ومصير اللواء يدلج في ظلام من بعده ظلام ، و كيف أقف مكاني ظمآن للحياة ومن حولي تفيض ينابيع المسرات . ولكن لا بد من السير سير الظل الى الظلام بعد أن وردت علي رسالة نياز تقول :

أي مصير ! منذ أيام ووالذي يلاحظ توحدى الدائم وتأملي الشرود وجنوحي الى الصمت وصدوفي عن اللهو ، حتى أدرك أني أهيم في دنيا غير دنياه ، فرعاني بطرف ساهر واحتضن مأساتي بقلب مخمور بالحنان الأبوي ، وخفض لي من الرحمة جناحاً وطيئا ، حتى اذا بثثته شكواي حسرى أراد مزيداً ، حتى اذا ادرك أنك في دنياي جدول سعادة عذراء واني في دنياك الظل الوارف الرحـــيم آض الى نفسه يفكر بوجوم ، فساورتني بأمره الظنون وكدت اندم لترسلي معه الى هـذا الحـد الصريح ، لولا أن خرج من وجومه يقول بصوت وادع إنك يا نياز لعلى فكر راجح وخلق نبيـــل وافـر ، فلك ملء الحـرية ان تقرري مصيرك كيف ما تشائين .

ومنذ يوم أقبل والدي يبثني مخاوف جلى من اتجاهك القومي ، ورجاني أن استدعيك لزيارته عاجلا ، فوعدته بقلب جذلان ونفسي سحابة من سرور . . . فسارع الى اسكندرون حالا فاني بانتظارك حرى انتظار ارض عطشى لغيث السماء .

أي مصير . . ها ان الحياة بدأت تبتسم لنا ابتسامة السعادة البكر فابتسم لي فأنا لك حياة .

ربيب الوادي

منذ يوم او بعض يوم وأنا احس فؤادي وردة بيضاء يضوع بعاطر من جنين ملهوف يجري جري الرياح الى مهد هواي عروس الخليج ،

فانطلقت مسافـــراً والأصيل يتداخل بالمساء . . فما كادت السيارة تتسلق بي صروح الجبال، وتبتعد عن مدينة بيلان أميالا ، حتى بدأت تلهث لهث المتعب المصدور ، وتئن من فترة الى أخرى أنيناً ينذر بالوقوف ، وفجأة سكتت عن الدوي ، وتسمرت بالأرض كجلمود صخري .

وهنا أخذت أراوح وأغادي على الرصيف متبرما ، واتشوف الى اعالي الجبل بشوق حران ، وانا لا ادري من أين تسلك ذروته الأنوف ، حتى مرَّ بي شيخ عجوز ، ناسل الوجه ضامر الجسد هزيل جدا ، يتمشى على الأرض مشيـــة شبح من غبـار الصحـــراء ، ويتـــوكأ على عكازين ، ركن أحدهما تحت ابطه ، والآخر لامس باطن كفه ، وعلى كتفيه بقايا من وشاح . . . فاستوقفته قائلا : من اين تسلك مناكب هذا الجبل ؟ فتنظر الي شذراً ومشى مطرقاً ،ومشيت الى جانبه اردد عليه السؤال ، فتململ مربدا وقال : ما أنا الا ربيب الوادي ! ! . . وسكت يحدق بي عجبا ، ثم استرسل قائلا : ان من كان يفني عمره مقيماً في مغـــاور الوهـــاد ، أتراه يـــدري كيف تسلك سبـــل الذرى ؟ تسلق صرح الجبل من أين شئت يدلك على ذراه دلاً ، فليس من سبيل الى ارتقاء الأعالي سوى سبيل المغامرات ، ثم تحدر الى بطن الوادي رويداً رويدا وتوارى بين هياكل الأشجار كالشبح يلج متئدا مطاوي الظلام ، وانا أسائل نفسي قائلا : اسمعت يانفس حكمة الأعمـــاق ، هيا تسلقي

صرح الجبل بأكف من حديد .

* * *

ولما همت بالايغال في جوف أيكات الجبل المتعانقة كأشجار الغابات سمعت صوت السائق يقول : السيارة على اهبة المسير . . . ولكن حلمة الأعماق ظلت تصفر في أذني صفير الرياح !

الكلمة الخالدة

أرأيت الى الطود الأرعن الشموخ ، يمكث متوحداً في سهل مجنح الأرجاء كيف يغدو قبلة الأنظار ، ويشار اليه من مدى بعيد ؟

هكذا لفت انتباه تيمور الي ، وأنا أحاوره بقرار جنيف وأفند مراميه ، وهو يستوي أمامي جالساً بكبرياء ، وطرفه يومض اعتداداً بنفسه ، وفي قسمات وجهه قسوة ناطقة تنم على شراسته ، حتى اذا سفهت احلام الدعوة التركية ورميتها بالخطل الكبير ، أخذته حمى من الغضب وقال بحماسة شاب غرير :

ما كان لدول جنيف أن تقرر مصير بلد تركي ، ونحن أولو بأس شديد ، ولو لم يكن قرارها المرحلة النهائية من بقاء اللواء في دنيا العرب ، لكان هينا علينا أن نصبغ وادي بيلان بالدماء ، ونجعل من وادي العاصي بحيرات حمراء تموج بالأشلاء . وسكت فترة ينظر الي بطرف ثاقب ثم استرسل قائلا بحماسة فاترة : فاذا قلت لك إن الجيش التركي سيوغل باللواء في غرة الصيف القابل ، فلا اقول شططا على الحقيقة ، وإنما لدي وثائق دولية تؤكد ما أقول فسألته بهدوء : أيقتحم الجيش التركي اللواء غازياً؟ كجيش فاتح جبار ؟ أم ان السلطة الافرنسية تخون العرب وتفتح له الثغور ؟ فعاوده الغضب مرة اخرى وقال مربداً ، وفمه يمتد بافتراز اصفر لئيم : سترى كيف ان الجيش التركي سيجتاحكم بلداً بلداً كاجتياح الاعاصير! قلت ساخراً : لن يوغل بقربة من قرانا الا بارادة افرنسية خائنة . فقال : إن كل ارادة تتمرس للارادة الافرنسية تنهار كبرج دكه انفجار ، فأحسست بالغيظ يغلي في دمي ناراً ، ويربد أن ينطلق من فمي لهبا ، فجمعت قواي وهممت بشر الكلام ، ولكن

« نياز » نهضت الي فوراً والقت في أذني كلمة ناعمة ، وناولتني لفافة تبغ وعادت الى مقعدها ترنو الي رنوات فيها أدق معاني الرجاء .

وهنا بدأت أدخن بشرود ، وأتأمل الدخان يعلو الى الفضاء حلقة فحلقة ، حتى اذا سكن مني الغيظ خاطبت تيمور قائلا : ألم تر الى هذا الدخان لو مثلته بخاراً يتصاعد متماسكا الى اعلى؟ كيف اذا ادرك جواً زاخراً برطوبة الهواء ، ينحل شيئاً فشيئاً ، ويتساقط وهفاً ناعماً ينعش الروض ، أو ينهمر فيضاً غيداقا يجدي الأرض .

هكذا نحن العرب نسمو على ارادة الطغيان سمو الدخان ، حتى اذا أدركنا أجواءً ملأى بالموت ، تنهافت على الأرض أشلاء مخضبة بالدماء. فلا ندع لواء اسكندرون يحتضر بلا ضجيج يهز الأرض هزا ، ويدوي باتجاه الزمان قائلا للأجيال العربية القابلة : هذا من دمائكم دماء سفكت دفاعا عن عروبة اللواء وخالطت ذرات التراب . فتململ وقال : ما أنتم صانعون والجيش الافرنسي يصليكم شواظاً من نار ، والجيش التركي يكمن لكم عبر الحدود بالمرصاد ؟ قلت نصنع بوحي الكلمة الخالدة التي قالها زرادشت وهو يناجي نفسه : زارا . . زارا . قل كلمتك وتحطم ! قال : تلك كلمة من كتاب الجنون : قلت إن بالجنون يمسك لباب الحكمة . والحكمة صرخة الجنون بوجه الطغيان ، فتنفس الصعداء وقال : لا امل بالتفاهم معك ابدا . وتلفت الى نياز ينظر اليها بطرف عاتب كأنه يقول لها بأسف : كيف تنشدين من مصير حياة زوجية هادئة تنعمين فيها بالصفاء والسرور ومصير كما رأيت . . . وكأنها ادركت مراده فدنت مني تقول همسا : لا ضير عليك . . . اوثقت مصيري بمصيرك ! ليفعلن القدر ما يريد .

من ليالي البحر

أتيت البحر والليل يتوسد زحمة الأمواج ، ويطويها طياً بلجج الظلام ، فلا شيء يدل على مهابة البحر سوى هديره الصاخب وهو يدافع الصخور بعناد.

وهنا شعرت بشوق جامح لى ركوب البحر متلاطما كالسحاب المتضارب في رحاب جو قطوب ، وامتطيت زورقاً مخاريا ، ورحت اخر به عباب الماء وهو يتأرجح بالظلام على غير هدى ، حتى اذا وهن الليل ونام اضطراب البحر ، وبزغ القمر منيرا ووشى الأمواج بضوء لجيني ، سادته سكينة وادعة حالمة، فاحالت روحي الى موجة من ضياء تطفو هوناً فوق اديم المياه ، فأخذت أتأمل روعة السماء ، والرياح تداعب الغوادي مداعبة قاترة فتذروها ذرياً هنا وهناك ، فتجري في الفضاء سابحات كأشرعة بيضاء ، وهن يحجبن وجه القمر من حين الى حين ، ويسرحن أدراجهن خطفاً .

أتراهن ادركن ما للقمر من جلال رائع جذاب ؟ فلم مررن به على استحياء مرور العذارى بسرب من يُفعان الشباب ؟ أم كن على ميعاد وروضة عطشى أقامت عبر الأفق البعيد؟ لعلهن أبين ان يشاهدن ضوء القمر وهو يحتضر فوق مياه البحر مشيعاً بعبرات الفجر ، فسارعن بالمسير

* * *

كذلك فارقت البحر وضوء الفجر يفلت من قبضة الأفق واثبا للسماء ، وما ان سرت مسافة يسيرة حتى تقدم نحوي رجل عربي اعرفه جيداً وهو يقول :

ان السلطة الافرنسية ونادى هاتاي بيّتا في هذا الليل على العرب مؤامرة نكراء قد تسفر عن وجهها الشنيع باكرا ، فكن على حذر : ثم سار في سبيله بخطرات عجلى كانت تختطف من الدرب اختطافا سريعاً .

النزوة الطورانية

ارأيت الى قبيلة بربرية عريقة النسب بهمجية القرون الأولى ، كيف اذا اثيرت غرائزها البهيمية ؟ تستفيق للفتك والاجرام والتدمير ؟

هكذا استفاقت الطورانية في نادي هاتاي تتنادى الى الاثم والعدوان ، حتى اذا أعجبتها ضوضاؤها أخذتها العزة فمارت بالصخب المريب، وانطلقت من الحي التركي انطلاق كائن مجنون تتدد بقرار جنيف ؛ وتتهاذى قائلة : اللواء لنا . . هاتاي لنا . . الى دمشق . الى مكة والجزيرة أيها العرب الدخلاء . . . ثم تصوبت نحو اماكن العرب زمراً زمراً ،وشارفت مداخل الأحياء العربية هوجاء تتنزى بالشر وتزبد كالموج عند سيف البحر .

وهنا زحفت الى لقائها فتية عربية زحف الكتائب الخرس الى معاقل العدو ، وجثمت أمامها كالهول مرعبا ، تبادلها اشد الضراب ، فكان الصراع شديداً، وكان الاندفاع ضريراً ، وكان القتال ضاريا .

أما السلطة الافرنسية فكانت في معزل عن هذا الهول الزاخر بالفواجع والنكبات ، أكان في أسماعها وقر أم هي صماء لاتستمع الى ازيز الرصاص كيف ينداح في الفضاء فيوقع الرعب بالأنفس ، وكيف كان دوي المتفجرات يميت غمغمة الأبطال ويستقر صافراً بالاسماع

ومنذ ان رأت العدوان التركي يرد مدحوراً ارتداد موجة طاغية، استيقظت لخيانة العرب يقظة الأفعى ، وقذفت بفرسان الجيش الى مطاوح الأتراك، وأحاطتها بأسوار من الحراب، ورمت العرب بمفارز من المشاة تحسن اقتناص الأرواح ، كلما ازدلف الى خطوط النار شاب

عربي مغوار حتى اذا تكاثرت القتلى والجرحى انكفأنا الى مطارحنا ونحن فريقان ، فريق يترنح نشوان ببطولة الشعب ، وفريق آخر يتحسر عبران على الدماء المهدورة بلا ثمن بالغ عظيم ، وهولا يدري ان الموت بمواقع الاستشهاد يروي نفسية الشعب بخلق صارم عزيز ، فينتفض بوجه الظلم انتفاض الدوح بوجه السحاب ، فمجيب ان نخشى الموت وهو يرفد الحياة بالدم الجديد ، ولا نخشى الحياة بالطمر العتيق !

المدينة الثكلى

أرأيت إلى غانية سمراء ثكلت اغيدها الحبيب ليلة الزفاف وقبعت بثياب الحداد ، وشعرها يتهدل على كتفيها خيوطاً من الظلام . كيف تبدو لك وهي حزينة حسرى ، كالبدر مخسوفاً يظلله الشحوب وتضمه هالة سوداء ؟ .

هكذا رأيت مدينة انطاكية بكرة كعروس ثكلى ، وأنا هائم بين بساتين الوادي ، ونواقيس الكنائس تترنح برنين الحزن الجريح يتهادى في الفضاء متماوجا ، ويعرج للسماء شاكيا .

أكان صداه مسحورا يتجاوب ومطارح السماء ، حتى امتد الي حساً بديعياً بمأساة العرب في اللواء ، فغدوت والكون غريقين في خضم زاخر بظلمات الأحزان ، أفي السماء تجاوب ومآسي الضعاف ؟ أم أن المآسي بالأنفس المرضى ايحاء بالحزن والاستسلام ، فتشوف حسرى إلى قوى السماء ؟ هذا ما تصنع المأساة ، فويل للعربي ان لم يقارع مأساته بجنان ثابت كالأرض ، وبنفس صابرة متسعة كالسماء .

هكذا كانت مشاعري ، ورنين أجراس الكنائس يطوي صداه بطاح الوادي فيهتز له الدوح مترنحا كالسكران ، ويرسل الخفيف بانسياق العاصي زفرات وآهات ، كأنه يتحسس مشاعري كعربي مفجوع بشقاء الوطن العربي ، او كأنه يعلم بأني واياه أخوان شبّا وترعرعا في ربوع هذا الوادي ، فيشاطرني مشاعر الأحزان شجياً والناس نيام .

* * *

ولما تعالى من شموخ المآذن صوت الدعوة للصلاة ، كنت أتحفز للنزال . . . وكان الشعب العربي هائجاً كالنمر عادياً في مقارعة طغاة الاستعمار .

القبور الحمراء

منذ كانت الظهيرة تحبو الى عرش السماء ، والسلطة الافرنسية تحشر بمداخل الاحياء العربية الفصيل تلو الفصيل من قوى الأسنة الوميضة ، والمفرزة تلو المفرزة من حملة الشواظ والحديد ، حتى طوقتها باسوار من حراب كانت تتوامض بأشعة صفراء ، كأنها الموت يتجهم للحياة .

ولما انتحمت قوى الأسنة والشعب في قتـــال ضار عنيف زلزل أقدام الأبطال ، تنحت عن قتاله ارغاماً وقسراً ، فانقضت عليه حملة الشواظ يمطره وابلاً اثر وابل من نار ، وهو يتلقى قذائف النيران ثابت الجنان راسخ الأقدام كرواسي الجبال ، كأنما انبعثت في نفسيته روح الجاهلية ربيبة الصحراء ، فكان مغواراً مقداماً يمثل الفروسية العربية اروع تمثيل ، ويحقق بطولته بشعور عفوي .

وهذه البطولة أهابت بالسلطة الأفرنسية الى ارسال نداء للعرب يقول : طامنوا للهدوء . . . واستجيبوا للسكينة ، فاللجنة الدولية الثانية يمت شطر الميناء ، وسوف تشرف على أحصاء السكان وانتخاب مجلس تشريعي يقرر مصير اللواء حسب ارادة الاكثرية الساحقة من السكان .

وهنا آب الشعب العربي الى احيائه مخمورا بنشوة طروب من ظفر راقص اوبة قبيلة جاهلية غازية الى مضاربها في حلك ليل دامس بهيم . ولكن أتدري كم التهمت ظلمة القبور من الضحايا الأبرياء ؟ .

لقد شيدنا أحد عشر قبراً أحمر في يوم واحد ، وما زال على سرر الاحتضار شباب جرحى يتشرفون الى رحمة السماء ، ومنهم من ينتظر قبوراً حمراء ، وما زلنـــا نستاف من دماء الشهداء عبير الموت مسكراً ، وأريج الحياة منعشاً ، فتلك هي نواميس الوجود تضحي بحيـاة لتأتي بحياة .

دوافع البطولة...

أرأيت ياصاح كيف حقق الشعب العربي في صراع الجند بطولته بشعور عفوي ؟ أترى في تحقيقها انتفاضة لدوافع خفية مجهولة ؟ .

ان في كل عصر للروح العربية السرمدية بأعماق النفسية العربية حياة امتدت من الماضي البعيد ، وتلك الحياة هي اللولب المحرك لحياتنا الارادية الآنية في انسياق المصير المحتوم ، وهذا المصير حقيقة الشعب العربي بالأمس الغابر ، واليوم الآني ، وفي الغد المجهول . وتلك الحقيقة الهائلة تهيب بالشعب كرها او طوعاً أن يعيش غابر ماضيه في أحايين حاسمة دقيقة ، بلا ارادة واعية تخط وترسم وتعين اتجاهاً معلوماً ، ذلك ان الغابر العربي بكل ما فيه من بطولة ومغامرة ومعاناة وخلود ، يتجمع من عصر الى آخر بالنفسية العربية تعاقباً ، لذا كانت تلك النفسية في هذا اليوم خضما كبيراً يتحرك بنوازع الأجيال الهالكة ، فلا غرابة ان حقق الشعب العربي بطولته بشعور عفوي ، مادامت تلك البطولة مزية أصيلة في خلايا نفسيته ، تضمر حيناً وتتفتح أحياناً أخرى .

فاذا ماعانى فرد واع مسئولية وجوده كعربي ، استحال غابر ماضيه بنفسه الى حياة تتحرك في أعماق وجوده ، فكانت نفسه حياة تريد ، وحياة تسعى الى تحقيق نوازع الذات السرمدية بقوة الزامية خفية ، فتتفتح نفسه للبطولة من جديد ، ويستهين بالموت كانسان فرد ، وهو ينشد الحياة ككائن اجتماعي ، وذلك ان لكلا الحياتين في نفسه مصيرا واحدا ينسجم ومصير الذات العربية الكبرى الى حد بعيد

فالعربي إبان تحقيق مصيره يغدو شبيهاً بالودق ، يهطل قطرة فقطرة

ويتجمع في واد عميق ، حتى اذا ضاق به اتساعاً ، تهور سيلا عارماً له سبيله المعلوم . فالحياة الساعية الممتدة من الغابر، هي في النفسية العربية ينبوع عميق ، يفيض تارة ويغور أخرى ، يفيض حينما يعاني الشعب أزمة حادة خلاقة مبدعة ، ويسيل في مجرى مصيره العام، وهذا المصير يضرب اغوار المجهول ماراً من جوف الحياة الارادية المسخرة لتحقيق رسالة العرب في مضمار الحضارة الانسانية .

رسول الكهف

إذا قيل لك إن ملكا أنزل من السماء رسولا ليقيم العدل في الأرض ، وليس بيمناه جلجلة الرعد ولا بيسراه كنانة الشهاب، ألا تراه أضحوكة للعابثين بالقيم المثلى ؟

هكذا أم اللواء رئيس اللجنة الدولية الثانية رقيبا يشرف على احصاء السكان وانتخاب مجلس تشريعي يجعل من اللواء دولة مستقلة ذات سيادة وليس وراءه سيوف حداد تقدح لهبا في ليالي الحوادث الرعناء ، فتهيل ضراوة الشرور الظمأى لاكتراع الدماء .

فماذا تراه يصنع اذا قلب له المسيطر ظهر المجن وظاهر الدعوة التركية ببأس الحديد ولهيب النيران ؟ أيهرع لواذا بدول جنيف ، وجنيف كهف التآمر الدولي .

أرأيت الى شاب مهوس تمكث في عينيه وداعة الاطفال وعلى وجهه ، فورة الايمان وهو يحدث عن آماله الجسام سليب الفؤاد يبهارج الاحلام ؟ هكذا رأيت رئيس اللجنة الدولية شابا مهوسا مثاليا، وهو بمدارج الكهولة ، يريد أن يجعل من لواء اسكندرون سويسرا ثانية في الشرق ، أو المدينة الفاضلة بالارض ، ويدعي أنه سيشرع بأحصاء السكان في جو مترع بالهدوء والنظام فيه للعدالة أعين لا تنام ، وفيه للانصاف يد لا تشل ، وليس لديه من سعار الحرب شواظ من نار يفرض العدالة فرضا على المسيطر الافرنسي ويرد كيده الى نحره .

* * *

أترى يا صاح في وضع رئيس اللجنة الدولية أملا يطمئن القلق العربي؟

لا وابيك ! فاننا لا نزال نذكر بمرير الأسى عهد اللجنة الدولية الاولى، وهي تطوف المدن والدساكر والقرى، وتتلقط مطالب السكان وترسل المواعيد الحسنى، وتبشر بعدالة مثالية، حتى اذا آضت الى جنيف، تمخضت عمرا فولدت قرارها القائل باجتزاز اللواء من ضامة الجسم العربي. فلن يهدهد رسول الكهف الدولي أنفسنا بسلسال عذب من أنغام مثاليته العزلاء، ونحن نسمع صخب التاريخ البشري يدوي على مدى العصور قائلا للشعوب العربية :

لا عدالة لكم ولا حرية، وألسنة حرابكم تتألق بابتسام السكينة والسلام

قوافل الدخلاء

ارأيت الى السفينة الجنوح ، تصارع الانـواء في عرض البحر ، وتكاد تهوي الى الاعماق رويداً رويدا ، وربانها يتشوف الى آماد البحر بالتياع مذعور ، وينتظر مصـــيره المحتوم من ساعة الى أخرى ؟ .

هكذا كانت مشاعرنا ونحن نحشر في سفينة مصيرنا المريع، وربانـنا يطلب النجدة تلو النجدة من الحكومة السورية فلا مجيب ، أخلت دمشق من كل نجيد مغيث ؟ أم ترى نحن نقيم في عالم المريخ ؟ .

فماذا نصنع ، وقوافل الدخلاء تتوارد علينا من أتراك كيليكيـــا بحراسة المدرعات الافرنسية ، فلا نستطيع لها ايقافاً ولا رداً ؟ ، أترانا نهرع الى رسول الكهف الدولي مستجيرين بمثاليته العزلاء ؟ فماذا يفعل ؟ والمستعمر الافرنسي متعنت بالباطل كافر بالحق، يعتبر قوافل الدخلاء أتراكا لوائيين ؛ هجروا اللواء قديما من تعسف الحكم العربي الفيصلي وآبـوا اليه بظل العدل الافرنسي !

ارأيت كيف يخرج علينا المستعمر باهاب العدالة، وكله زور ونذالة وخيانة ؟ فلمن نشكو بلوانا ؟ . . وطالما أبنّا لحكومة دمشق سوء نواياه فما كانت لتعيرنا اذنا صاغية ، بل تجاهلت امرنا وتغافت عنا غفوة الضب شاتيا . كأننا نسكن في جرم صغير من أجرام السماء تتجاذبه الكواكب الكبرى من هنا الى هناك . . فويل لحكومـة الكتلة الوطنية من اللعنة الوبيلة ، لعنة الجيل العربي الجديد .

العبيد البيض

أتدري من هو العبد الابيض ؟ انه من كان يمارس السياسة القومية مرتزقاً ، كما يمارس الطائر (ابو سعد) صيد الحشرات ، أتراه ينال قوتا من ديدان الارض ، إلا اذا غمس نصف رأسه بطين المستنقعات؟

تلك هي صورة لكل قائد سياسي من العرب، ينظر الى ارائك الحكم نظرته الى منجم ذهبي بدر تبراً بكرا ، حتى اذا رام منه نصيباً وافراً اشتمّ من أقدام المستعمرين نتن العبودية ، فتلك هي لعمري مزايا العبد البيض في الشرق العربي .

ألم تر لى قيادة ارعيل الاول كيف تتمطى على أرائك الحكم وتتغنى بأنشودة التفاهم النزيه ، وتحوم حول المعاهدة السورية الافرنسية بطنين داو كطنين الذباب ، والكارثة الكبرى تقترب من عروبة اللواء اقتراب النار من الهشيم ... فأين هي من مكانة القيادة الصالحة ؟ انها بالدرك الاسفل من الحضيض ، درك العبد البيض .

فاذا قيل لها لمَ لا تجعلي حداً من نار لعبث السياسة الافرنسية بعروبة اللواء ؟ أخذتها الحسرة بالكذب وتشاجت مكراً وقالت : ماذا نصنع والشعب واهن نوام عن النضال الثوري ... والشعب ليس بنائم وليس بواهن ، ولكن خدرته بأفيون التفاهم النزيه .

أرأيت الى البحر الساهي العميق القرار ، كيف لا ينخض ميداداً هائجاً الا اذا تمخض في قعره زلزال عظيم ؟ هكذا غدا الشعب بعد التعاهد الافرنسي السوري ، فكم هو بحاجة الى الزلزال يتمشى في اعماقه مدوياً متفجراً حتى تنبعث منه القيادة الصالحة : فتزأر بالأسماع قائلة : الى النضال . . الى الموت . . الى الفناء في سبيل انقاذ عروبة اللواء .

مسرى الركب القومي

ارأيت الى الركب الضارب في رحاب صحراء عبوس ، تنـــوء بوهج الرمال اللاهثة ، وهو يتوهم أنه شارف الهدف الأخير ، ولا يدري ان دليله ماكر خادع يفتن بالتضليل .

تلك هي صورة ركبنا القومي، وهو يسري في متاهات الاستهتار رتائها، ولايدري أن قائده من معاشر (الرعيل الأول) يقوده الى مسالك الهلاك والتيه .

اتراه يدرك أنه ضليل ؟ . . لا وأبيك ! فهو بمسيس حاجة قصوى الى قائد ماهر من طليع الجيل الجديد ، يقوده الى واحـــة فيحاء ، من ورائها واحات ، حتى اذا تثاقل بالمسير، وتململ من مشاق السفر الطويل ، انتصب أمامه حاديا بصوت الايمان المتلهب العنيف ، حتى اذا شد عزائم الضعاف ودغدغ الآمال ، وخلق جنة من الأحلام يكاشف الركب قائلا :

الدرب امامنا شاق ولكن لا بد من المسير ، وزادنا من الطاقة وفير، ونحن اولو عزم صارم وهناك . . . هناك . حيث تهلك أعمار الابعاد ، تحيى أماني الجميع ، فهيا جدوا بالسير الدائب الحثيث .

هذا ماتريده سلامة ركبنا من القيادة العربية ، وما تفرضه عليهـا فرضا ، هو النظر الى الحياة من خلال ظلمة الموت كنظر المـؤمن الى الجنة من ظلال السيوف ، حتى تغدو قدوة حسنى تمسك بأعنة الشعب وتسير به مراحلَ في انسياق عالم جديد .

ارأيت الى نتوء وثب من قعر البحر جامحاً ، كيف يدفع بالمياه عارمة طاغية تغرق وتغمر وتزيل ؟ هكذا سيثب من صميم الشعب قائد الجيل الجديد ثائراً متمرداً، فانتظر من الشعب الانتفاضة الحية الخالدة ، فكل آت قريب .. وهذا هو ناموس الحياة ، ركود وانتفاض .

كبراء العبيد

أرأيت الى الشهاب يتهاوى ليلاً في كبد السماء ، كيف ينير فراغ الفضاء وينقض على الارض صاعقا مهلكا ؟ .

تلك هي صورة البطولة ، تتجلى على الشعب بأضواء الشهب المتهاوية ، وتحارب اعداءه برعونة الشهب الصاعقة ، فاذا انتفض البطل ثائراً على الواقع الفاسد، متحدراً من ابراج مثاليته العذراء ، كان حدثاً هائلاً يهز اعماق الشعب هزاً ويملأ فراغه قيماً ومثلاً عليا ، فيندفع للحياة وكله آمال وأحلام، فيأتي بالخلق والابداع .

فهل ترى من كبراء الرعيل الاول من تلمس مكانة البطولة حبواً او زحفا ؟ إن أدناهم من هرم البطولة صرح قائلا : (لقد خسرنا لواء اسكندرون ، ولكن لم نخسر حق المطالبة به ! اكان غراً غبياً لا يدري أن الدفاع عن الحق يتطلب القراع المستميت ، وان المطالبة بالحق المغصوب امر مجهول يثوي في جوف الزمان ؟ لا وأبيك !وانما اراد بقوله هذا ان يخايل اعين الشعب ببريق أمل خلاب كالسراب .

اما اقصاهم عن هرم البطولة، فقد صرح قائلا :(لا يسعني الا الانحناء احتراماً لقرار جنيف) .

تلك كلمة خرجت من فمه فانتشر منها عفن كريه أهو عفن العبودية الراسخة بنفسه رسوخ الاطواد ؟ أم انه عريق النسب بالارقاء المولدين ؟ انه وغد لئيم لو قدم الى سيف جاهلي لرأيت السيف يأبى أن يتهاوى على رأسه ، مخافة ان يكرمه بالموت قتلا ، ولكن صبية اللواء تحن الى

رجمه لكي تزيقه حمي الموت رجما بالحجارة . فقد كان فوق منصة الحكم يعفر خده بغبار الحذاء الفرنسي خانعاً ، حتى اذا اقصي عن اريكة الحكم خرج الى الشعب متنمراً كطاغية ، وارتقى المنابر بين اتباعه المرتزقين مشرئباً للفخار بمجيد ماضيه ، فلبئس التابع وسحقاً للمتبوع .

القسم الثالث

همس الربيع

من انطاكية الى مهجر العرب

ارأيت الى غادة صحراوية معطار ، انتصبت أمام خدرها باكرا ، تهفو بقميص ازرق سماوي ، وترمي مدى الصحراء بطرف شارد سبوح ، وتستقبل النسيم بمرح جذل ؟ وهو يختطف عبير عطرهـــا الفواح ، ويفر نشوان الى بعيد ؟ .

هكذا أصبح دوح العاصي معطاراً كغادة هيفاء ، يرسل الفوح بكراً بعد أن لامسته جذلى أنامل الربيع ، ووشت خطاه الريا بطاح البساتين بروائع من الزهر الحالم الوديع ، فانتفضت سكرى بحياة عذراء تتضاحك للحيـــاة .

فلو رأيت كيف غدا الوادي ينشر عطراً ويتعاطف فرحاً ويبتسم طرباً ، لبدا لك خضما سندسياً متماوجاً ، يرغي زبـداً براقاً تبلور من مختلف الأزاهير ، وهو يتألق ساحراً كلما ترامت عليه شمس الأصيل .

هكذا استفاق الوادي من هجوعه الحالم الطويل استفاقـــة نشوى بالحياة ، وحياةً تهمس في اذني صباح مساء : « كن في دنيا الربيع زهرة حالمة بيضاء ، تحتسي ندى البكور في ذهول عن مقلة النور . . . أحسبت قلبك يعمر دهراً ، فمدى العمر قصير كعمر فراشات الربيع » .

فكيف لا أحن مشوقاً الى دنيا هواي ، وهمس الربيع يدوي في أذني كهزيز الريح وهو آت من براعم الأزاهير ، وكيف لا أكون غـدا نزيل اسكندرون وعشير نياز ، وفؤادي طائر من حنين .

ظهيرة القلب

انتصبت ونياز بشرود فوق جلمود صخري يطل ، على واد مشجر بهيج ورحنا نتأمل جمال الغروب والازهار سكرى بخمرة الربيـــع ، والشمس تغافل الوادي وتسترق خلسة من أديمه النور ، وهو ساهٍ عنها وفي غفلة ذاهلة كغفوة العرب عن مأساة اللواء .

ولما برز الينا الشفق الأحمر ناشراً جناحيه في أطراف السماء ، يتيه زهواً بغريب الالوان ، خلته طائراً ابيض لعوباً ، يرنق بالفضاء ساهياً بعـد أن مرّغ جناحيه وجيده بدماء شهيد عربي ، فأخذتني سكرة من مأساة اللواء ، وغابت نفسي لحظات في عالم حزين جميل . أما نياز فرأت في الشفق الأحمر ابتسامة المساء تودع الأرض الى حين .

وعندما أقبلت علينا غرة العشاء ، تنساب بين غوارب الجبال انسياب غبار أثاره جري فرس جموح ، قالت نياز : قد استوحش وجـه المساء واعتكر ، فهيا بنا نعد فالدرب دوننا عسير .

قلت : دعيني حتى أرى الليل يضرب بجناحيه الوادي ، ويتوسد طريقنا ساكنا هادئا .

قالت : أراك تحن إلى الليل ؟ أبنفسك غيهب من ظلماته ؟ .

قلت : لعل بي حلكاً من سواده الرهيب .

قالت : أنا لا أطيق الليل دامساً بهيماً وهواي ليل سرمد ليس وراءه فجر باسم يأتي بنور جديد .

قلت : هواك ليل مات سحره وكاد يثب فجره أبلجَ ساطعاً .

فتململت قليلا وقالت حسرى : ما أراني خلقت الا لليل الموحش المخيف .

قلت : ما خلقت الا" للفجر الضحوك فانتظري تباشيره الغراء ؟ وقالت : فاضطربت بصوت محرور ، أأنتظر وزهرة صباي توشك على الذبول ؟ . . وسكتت فترة وناجت نفسها آسفة ، رباه ! لم لا أرمس هواي بنفسي فتياً . واتخذ له رمزاً مقدسا يرمز الى ظهيرة قلبي وهي تجنح الى الزوال ... ثم صمتت تنظر الي بطرف غضوب . وهنا أخذتني حـــيرة بليدة ومشى الانفعال بنفسي فارباً، فأحسست بعيني صخباً شديداً يريد أن يتكلـــم بالدمـــوع ، فرنوت اليها رنوات كاسفة ، كانت الي تشكو بصمت حزين.

ولما رأت طيف الانفعال بعيني جريحاً هتفت : أواه ! أمنفعل أنت...؟ ثم مالت تعانقني بحنان والدمع يتزاحم بأهدابها مرتعشا ، حتى اذا هدهدت نفسي بنجوى الدموع ، راحت تواسيني مواساة أم رءوم ونحن نتحدر من صرح الجبل الهوينا . . .

فماذا تراني فاعلا بأمر نياز ؟ وهي تلح علي الحاحاً دائباً بالاقتران ، وكثيراً ما أبنت لها بوضوح أن وضعي يضطرب بالزواج فما كانت لتدركه بشمول ، فكيف تدركه وهي لا تدري كم أعاني من شقاء الوطن العربي؟.

لذائذ العظمة

مابرحت نياز تواقة الى حياة الأمهات ، وأنوثتها الحالمة خشيا من فوات الأوان تقترب من النضوج اقتراب الثمرة اليانعة من الجفاف . وانا حائر لا أدري كيف أجد لأمرها مخرجا ، وظلام جنيف مخيم على مصير اللواء .

فمن لي بمارد عات جبار يتقمص روحي ثائراً ، ويسيرني ضريراً في دنياه ، لعنوت لارادة نياز بالاقتران صاغراً وطامنت لواقع الحياة ، غير انى أحس بنفحات علوية آتية من وجدان السماء تلزمني ، الزاماً قاهراً ان اتحمل أعباء وجودي كعربي يغالب الطغاة مغالبة دائبة ؛ حتى اذا صرعته كان له نشوة البطل المقدام ، وهو يعاني سكرات الموت ساخراً من الحياة .

ارأيت الى من كان له مطلب عزيز المنال ، يقيم منيعاً فوق قمة جبل شماخ ، كيف يجد في سعيه الدائب لذة موصبة بالعناء هي أعمق أثراً بالنفس من لذة تحتضر على سرر الشهوات ؟ .

لذا اراني تواقاً الى التسامي على دنيا الشهوات المرضى بالألم الجائع الفقير ، واحن الى دفع قواي لخلق عمل جبار عظيم ، حتى اذا ركبت غوارب الصعاب ، واقتحمت غمرات الأهوال كان لي ـ من ارتعاشي منتصراً ومن اختلاجي مغامراً ـ لذائذ العظمة المعذبة ، فتلك لعمري لذائذ الأبطال عند قتحام الهول ، او ساعة الانتصار .

ارأيت الى حبيبات من الماء تطفو سابحات فوق مرجل يغلي ويفور ؟ كيف تزول سراعاً ونيران المرجل آخذة بالانطفاء . تلك هي لذائذ الحياة الفاكهة الكسلى ، تتراقص بجنون فوق ضرام الشهوات ،

ولكن ... سرعان ماتزول من عالم الذكريات .

فاذا كنت تريد من الحياة لذائذ هائجة عنيفة ، تعمر في ذكرياتك دهراً ، فتسلق صروح البراكين وهي تقذف شواظاً من نار ، فان اللذائذ المعمرة بالأنفس زمناً مديداً لاتقتنص من الحياة إلا بقراع الحياة ، ذلك ان القراع الهائج يطبع بالذاكرة صور الهول طبعاً قاسياً ، فتغدو على كر لزمان أطيافاً ساحرة تمتع القلب بمتعة رائعة ، كلما خطرت تتهادى في دنيا الخيال .

* * *

لذا وجب علينا نحن طليع الجيل العربي الجديد ، ان تتحمل مسئولية وجودنا كعرب ، نريد ان نقتنص من نيوب الاستعمار ومناسر الاقطاع لذائذ العظمة المعذبة . فتلك لعمري لذائذ تساوي كل ما في الحياة ...

الافاعي الرقطاء

من الريف الى مهجر العرب

أرأيت الى سرب من الأفاعي الرقطاء، تسعى مشرئبة الاعناق وتلهث لهثاً مخوفاً ، فتنفث السم زعافاً قاتلا ؟

هكذا أرى سماسرة الاستراك وهم يعيثون بالريف فساداً واجراماً ، عيث الافاعي الموصبة بجنون الرمضاء ، ويرتادون المعابد زمراً زمراً مدثرين بجلابيب الدين خداعاً ومكرا ، وينثرون الذهب نثراً كالرمال المتطايرة في مهب الرياح ، ويراودون مشايخ الطرق والزوايا على شراء ضمائر الحمقى والمغفلين من الفقراء .

فكيف نطارد قرصان الضمائر في يم هدار زاخر بالامواج ؟ وليس لنا فيه شراع من فولاذ لا يتأرجح ميالاً بهوج الخافقات ، وكيف نرد الدعوة التركية على أعقابها القهقرى ، والمستعمر عطوف عليها يحميها باسم الحرية ويحيط حرية العرب بجسو عابس مترع برائحة الموت والبارود.

أرأيت الى من مكان اعمش كثير الاغماض ، يتلهف بحسرة مريرة الى بصر من حديد ، ويخاف غيهب الضرير خوف الاعرج من مقعد الكسيح.

هكذا غدونا نتلهف إلى معوان نصير ، بعد أن أغلقت دوننا حكومة الرعيل الأول ، حكومة العبيد البيض ابواب الرجاء ، واطبقت علينا مرهقات الاستعمار ، وكادت معركة الاحصاء تقترب من اليوم المحدود.

فماذا ترانا نصنع ، أنخوض معركة الاحصاء بقلوب عامرة بالايمان واثقة من النصر الأخير ؟ هكذا سنفعل ، وان استطعنا فسنجعل من اللواء قرطاجنه ثانية في الأرض .

الغمرة الدامية

أرأيت الى الواحة العاطرة ، تهجع على فراش الصحراء، كيف اذا اجتاحتها هوج الذاريات ، تعبث بأمنها العذب ، وتروع اطمئنانها الحالم وتغمرها غمراً بالرمال ؟ أتراها تستطيع أن تخرجها من عالم الصحراء ؟ وأبيك لن تنال من مستقرها المكين منالاً صعباً .

هكذا كان الجيش الافرنسي في أوائل أيام الاحصاء يجتاح الارياف العربية عسوفاً كالذاريات شدة وعتوا ، ولكنه لم ينل من عناد الشعب العربي مأرباً ، بل ظل الشعب راسياً أمام مهب الهول رسو الجبال الشماء الهازئة بعصف الخافقات ، يدافع عن حقه المقدس الدفاع الضارى المستميت .

أرأيت الى الطود المتعالي الأشم ، يسربل هامته الانوف بالصخور الصماء ، ويمسك بالارض فخوراً بسرباله الصلب ؟ كيف يغـــدو متماسكا من أعالي ذراه حتى نهاية سفوحه ؟

هكذا كان الشعب العـــربي يخوض غمـــار معركة الاحصـاء سفاً واحداً ، ويحتضن عروبته بحنان واجف كحنان الامهات ، حتى اذا دحر الدعوة التركية وربح الجولة الأولى ، أزاحت السلطة الافرنسية عن وجهها قناع الحياد المزيف ، واعتبرت معركة الاحصاء معركة السياسة الافرنسية العليا ، فقذفت الى الريف بفصائل من الفرسان ، كانت تجوس القرى العربية فساداً وإجراماً ، وتكره الفلاح الآمن على الاستراك بشتى اساليب التنكيل والتعذيب

* * *

ولو رأيت كيف داهم الجيش القرى بوميض الحراب ، وشرد أهلها سكارى بالعذاب ، لرجعت بخيالك إلى الدور الحجري، يوم كانت الهمجية بكراً وأنت تقول :

ما بال همجية القرون الاولى ما انفكت تتخبط رعناء في نفسية الضابط الافرنسي ؟ ألم تمسه يد التهذيب الحضاري بنصيب من الخلق الانساني ! فليت شعري اين ضاعت عصور التقدم والنور ! ويا لشقاء الانسانية حتى يدك آخرصرح من صروح الاستعمار العالمي، فيغدورسوماً دارسة في يباب التاريخ .

الضحايا الثلاث

هلم بخيالك معي الى منبسط فسيح من وادي العاصي . تجد قرية عربية عكفت تقدس فورات ينبوع قراح نمير ، يلتف حولها كأفعوان رمادي ، ويروي مزارعها سخيا وينساب تهادياً الى بعيد ، فتنساب وراءه دنيا سندسية زاهية خضراء ، ان اودعتها الطرف رائداً ، وأهداب الشمس تخضل بالنور الشاحب المريض ، ارتد حالماً كأنه يرود في جنات الخلود .

كذلك ترى كيف كانت مفرزة فرنسية تطوق القرية داراً دارا بأسوار من الحراب ، وكيف كان ساح القرية حشداً قروياً ميادا ، وقف امامه قائد افرنسي ، يتبختر على صهوة جواده كفارس أسطوري . حتى اذا ألقى أمره صارماً ، طرق الأسماع مدوياً كزفير اللهيب ، تجهمت الوجوه واربدت الأنفس ، ومارت بالغيظ المحموم .

وهنا تنادت فتية القرية الى الندوة ، وتشاورت فيما بينها ، فأقرت التمرد على أمره ، وتبايع ثلاثة شبان اشداء على الموت او يهلكوا دون اقتحام سور التطويق ، حتى اذا جاءوه باغتوه فجأة واقتحموه عنوة وانطلقوا منه بسرعة الريح وباتجاه مركز التسجيل . . ولكن سرعان ماتصوبت اليهم افواه البنادق ترسل اثرهم وابلا تلو وابل من النيران ، حتى اردت الأول قتيلا وصرعت الثاني طريحاً ، غاب الثالث متوارياً في حنية الطريق ومن خلفه الطلقات تبربر بالصدى المخيف

أتراه يدرك مركز التسجيل حيا ام يجندل على الأرض قتيلا ؟ لقد ادركه جريحا ويده تقبض على جرحه المميت ، وأوغل فيه يقول بصوت أبح خفيض : سجلوني عربياً قبل ان اموت . . . سجلوني عربيا . . .

وجنح بنفسه الى الارض خائر القـــوى ، يبعث بأنينه شاكيا للسماء .

* * *

وكأني أراه طريحاً على الأرض شاخص البصر ، والأعين ترمقه خاشعة ساكنة ، قائلة بارتعاش الدموع : بمداد من دمك سجلت نفسك عربياً ، فنم النومة الأبدية ، قرير العين . . . فأنت . . . أنت عربي .

الدماء تتكلم

أرأيت إلى الزهر الفواح ، يحلم بنفسه ثمراً يانعاً لذيذاً ، ويهفو فوق فوق الاغصان هفواً ناعماً ، كيف إذا باغته ريح صرصر عسوف ، يتهافت على الأرض صامتاً كنديف الثلوج ؟

هكذا كنا في شدائد معارك الاحصاء ، نتهافت على الموت كالزهر منثوراً بأدراج الرياح ، والموت يبرز الينا بأهاب افرنسي ، ويتلقف أنفسنا من الأسنة الوامضة ، ويختطف أرواحنا من القذائف الطائرة ، حتى إذا سالت دماؤنا على شبا الحراب ، وانطقت بالكلمة الخالدة : « في التاريخ نخط سطراً من تاريخ الجيل العربي الجديد » ؛ تغافى عن قتالنا كظيما ، ما أظن تغافيه الا خبثا ومكرا .

* * *

وهناك استبان لنا أن الشعب سجل في القائمة العربية ، بأحرف من نار ، عدداً من العرب أربى على ٦٥٪ من ضامة السكان ، عدا وادي العاصي ، فهو لم يقدم إلى مراكز التسجيل عربياً واحدا ، وما زال مطوقاً بقوى الحشد الوحشي ، ثم تبين لنا أن الدعوة التركية تلقطت من حثالة العرب تسعة وعشرين شخصا تسجلوا اتراكا .

فتأمل كيف أفنينا جهود دعاة الاستتراك بدداً ، وكيف رمينا السياسة الافرنسية بالخزي والعار ، لتدرك أن الدم العربي أقوى من الموت ، وأشد عتواً من بأس الحديد ، وأمضى عزماً من وهيج النيران ، وأن اللواء هو المنبت الاول لنواة الجيل العربي الجديد .

نجوى الصمت

من اسكندرون الى مهجر العرب

ان من كان واجداً صوفيا ينظر الى الأرض باهداب السماء ، حتى اذا كان شقياً بالأرض ، تفاني بحب السماء وهو سعيد .

فماذا علي من ضير اذا نظرت الي نياز باهداب المثال ، ولبيت ندائها ليلا وسعيت الى مزارها مشوقاً ؟ أواه ! لا استطيع . . . لقد أوجست خشية من طرق دارها سحرا ، فيممت شطر البحر واشباح الظلام تثوي فوق الموج كالعجائز الهرمى ، الا صخب ينفّر الصمت من البحر ، سوى غمغمة الأمواج تداعب حصى الشط ، وتدافعه برقة ولين وتهوي بـه تارة بعد أخرى ، فيكر الى مثواه راجماً وهو يتمتم بصوت عذب اشبه بقهقهات فتيات صغيرات ، وهن يرقصن في فرحات الأعياد .

ومع أن الصمت كان يكاثر نفسي ، ويجعل مني اثنين في واحد منسجم أنيف ، لم اكن اشعر بسرور ، بل كنت قلقاً مضطرباً ينـاوش نفسي هاجس أرعن ويسائلها قائلا باستهزاء :

مالك تراوحين وتغادين حيرى ؟ أأنت سحابة صيف هائمـة في سماء صحراء تتجاذبها الرياح من هنا وهناك ؟ ألا ترين كيف ان الليل يلوذ بالأفـق هروباً من يقظـة الفجر ؟ ألا ترين كيف كاد الفجر ينهض من الأفق مشيعاً حشرجة الليـل بعبرات بيض ؟ ويحـك يانفس! لم تظللين في حيرة بليدة والصمت يتململ خجولا من المكـوث وحيدا حول البحر ؟ . أتريدين أن أطرق مزارها زائراً ، وعين الفجر ترتعش بالضوء ؟ ويحك لاستطيع ! . فهيـا عـودي من حيث اتيت ودعي الصمت وحده كئيبا، حتى اذا باغته ضجيج النهار ولى هاربا !

صرخة القلب

أرأيت الى الريحانة العطشى ، تحتسي الري قطرة فقطرة من أعين ينبوع ضنين ، باتت أجفانه كثيرة الاغماض ، لا تتهلل بعبرات الاعماق الا نادرا كيف تذوي كاسفة حسرى ؟

هكذا رأيت « نياز » وأطياف الحسرة تختلج بعينيها الخضراوين مضطربة حائرة ، وهي تقول برجاء لحوح :

بربك يا مصير . . . غادر اللواء مسرعاً ، فقد نمي إلي أن السلطة الافرنسية بيتت النية لارغام العرب على الاستراك بقسوة الحكم العرفي . وسكتت تنظر الي نظرة عبرى ، وتأوهت زافرة واسترسلت قائلة : وقد اختارت لذلك القومندان كوليه ، وما إخالك تجهل ذلك الفرنسي . . الم تره يروض الجندي المرتزق على الوحشية ترويضاً مخوفاً ، ويجعل منه وحشاً كاسراً جائعاً يلتهم الدماء ؟ .

ولما تيقنت أني عزوف عن ارادتها ماضٍ في امري ارتعشت رعشة حادة ونفر الدم الى وجهها قانيا ، وهتفت بصوت متهجد بالالتياع مصير ... إن الامر لأعظم مما تظن ، أحسبت بقاءك هنا يجديك نفعا ؟ وسكتت فترة ترمقني بحنان ثم مضت تقول : رحماك . . . سافر الى أين شئت ، أو توار عن الانظار ، ترحمي وترحم شبابك الغض . . . ثم راحت تخاطب قلبي بفيض الدموع . . . فانبعث من اهدابها المخضلة بعبرات الرحمة برق وحي الهمي أوحى إلي بالبكاء ، فانتفض الدمع في عيني ثائراً ، وكاد يتصبب من أجفاني مدراراً ، فغالبته وغالبني

وغدوت حيران لا أدري كيف أقهر دمعي ، وا كفكف عبرات نياز ، حتى مالت الي بقلب أبيض تقول : بربك قل لي أتعدني وعدا مقدساً أن لا تنشط لأي عمل سياسي ، والأحكام العسكرية جاثمة فوق ديار العرب ؟ وسكتت تنتظر جوابي بقلق مهتاج ، فوعدتها ضاحكا وأنا أعجب كيف يغدو الكذب ضرورة اجتماعية لا مفر منها !

حكيم الذئاب

إن من كان يقترب رويداً رويداً من فوهة بركان مضطرب مهتاج يقذف حمماً وشواظاً ، لن يخشى انقضاض الصواعق تتهاوى عليه تترى .

هذا ما قاله زعيم عرب اللواء ، ونحن جلوس في بهو المندوبية الافرنسية ، نرسل الى المندوب النظرات الحمراء وهو جالس امامنا بصلف وكبرياء يتفرس في وجوهنا واحداً تلو آخر ، ويوزع ابتسامات ماكرة ناعمة ، ويحيينا فرداً فرداً حسب التقاليد العربية .

وما ان تحدث عن قضية اللواء حتى تميز الوجوه من الغيظ ، واحمرت الأعين من الغضب ، وكادت تومض لهبا ، واليك طرفاً هاماً من حديثه الخطير :

« لقد آن لي أن أفاجئكم بهذه الحقيقة المريرة . . . إن فرنسا قررت أن تتخلى عن لواء اسكندرون للدولة التركية ، فلا مرد لقرارها ابداً وان سالت الدماء جزافاً ، فهل لكم أن تتفادوا سفك الدماء بهذا الاقتراح ؛ وهو أن تمنحوا الاقلية التركية اللوائية من مجلس اللواء التشريعي اثنين وعشرين مقعداً من أصل أربعين مقعداً فحسب ، وبذلك تصونون دماءكم من السيلان ، واموالكم من البوار ، وقراكم من الدمار ، فتلك هي السياسة الافرنسية العليا »

وهنالك انبرى له زعيم ريفي ، وخاطبه قائلا بصوت جهير :

لقد قيل قديما ان العمائم تيجان العرب ، والحقيقة ان العمائم اكفان العرب ، وليس يهاب الموت من كان يتعمم بكفنه ممسيا مصبحا ، وإن ما تنذرنا به من قتل وهلاك ودمار ، لن يرهبنا ابدا ، فلك ان

تسلك في سبيل سياسة فرنسا العليا اوعر سبيل . فأجابه غاضبا : لا إخالك تجهل ما للدولة الافرنسية في الشرق من جيش جبار عظيم، ان اضرم نار القتال في حلك الليل جعل دجاه نهارا . فقيل له : هون عليك ودع التهديد جانبا . . . وقال آخر بهدوء : على رسلك ياحضرة المندوب ، قل انا : ماذا نصنع اذا اتخذت الأكثرية التركية في المجلس قراراً خطيرا يجتز اللواء من ضامة الجسم العربي ، ويضمه الى الدولة التركية ؟ الا يعتبر هذا القرار في العرف الدولي شرعيا ؟ فتململ وقال : هذا هو اقتراحي الوحيد ، فتشاوروا فيما بينكم ، وآبّ واقفا وهمّ بالمسير ، فناداه سيد من الريف : مكانك قف يا حضرة المندوب ! فليس في اقتراحك مجال للتشاور ولا موضع للجدل ، فاني ارفضه باسم عرب العمق ، وان قلت للسيف دونك هذا العربي ـ وأشار الى نفسه ـ مزقه إرباً إرباً . فلن تراني أسلم باقتراحك ابدا .

وهنا سرى بأنفسنا ضرام الحماسة سريان الكهرباء في جو تضاربت فيه الغيوم ، وقال قائل من وادي العاصي : تلك هي كلمة العرب ، نقولها غير مبالين بالموت والهول ، فيمن علينا بنبرات صوته الحماسية هيمنة وقوراً وسادنا صمت مهيب ، وآض المندوب الى نفسه يفكر باستغراق ، ثم خرج من تفكيره يقول بصوت جديد : لست ممن يظاهر الساسة الافرنسية العليا في قضية اللواء مظاهرة عمياء ، فلن أدعمها بسفك الدماء ، واشهدكم أني مستقيل من المندوبية منذ اليوم ، وصمت فترة يفكر مطرقا ثم رفع رأسه قائلا :

والآن احدثكم كصديق . . . وارجو رجاءً حاراً ان تضامنوا للأمر الواقع ، قبل ان يأتيكم حاكم عسكري خشن الطبع شديد ، يرغمكم على الاستراك ارغاما ، فقيل له هنالك نستقبل الموت بالترحاب الجميل ، فتلك هي شرعتنا من قديم ، وقال له آخر : أليس جميلا بالدولة الافرنسية ان تفتح الثغور للجيش التركي فيوغل باللواء ايغال الفاتحين ، من ان

تسفك الدم العربي ظلما وعدوانا ؟ فاجاب كئيبا : ما كان لفرانسا أن تغادر اللواء الا بصورة شرعية تبرر التزاماتها الدولية تبريراً صوريا .

* * *

وهكذا انفض مجلسنا لدى المندوب ، ومضى اقتراحه الى سجل التاريخ، فياله ذئبا كاسراً وقف عند الخطوة الأولى وقفة عاقل حكيم .

ربيب «السين»

إذا سرحت بانسياق شارع الجسر ، والليـــل سكران يحتسي ضوء القمر احتساء المدمن لرحيق الصهباء ، ينتهي بك خارج العمران الى بقايا دار مهجورة قديمة جاورت نهـر العاصي ، منذ كان أبو العلاء المعري نزيلا في هذا البلد ، يغترف العلم ويماري الرهبان ، ثم قف هنـاك منتظراً . . . حتى إذا انتهز الليل غياب القمر ، وجنّ على الدار حالكا مدلهما ، وغيّب مثواها عن الأبصار ، تشهد أشباحاً سوداء ، تتسربل بالظلام ، وتتوافـد الى الدار زمرة بعد أخرى ، وتطـوف حول الدار بمهابة السيوف ، وتتخايل بوميض النار ، لكل من دلف اليها طارقاً أو جاءها مقتحما ، فتتساءل حائراً : أهنا محشر أعـد لرقص الشياطين ؟ أم هنا يمكث سر مخيف ؟ انه مقر القيادة العربية في جوف الليل .

وعندما يتنفس الفجر يصبح مستقرها مغاور الجبال ، وذلك بعد أن نشر الكومندان كوليه الذعر بين العرب راحاً شديدا ، وطرق الاحياء العربية عاتياً متعسفاً ، فروّع الاطفال وأرهب المخدرات ، وأهال المقصورات واختطف آبائهن وأخواتهن وأولياءهن ، وزجهم افواجاً في غياهب السجون. وتمادى على قدسية العدالة فانتزع من أقفاصها الحديديـه مجرمي الأتراك وجندهم دركاً ، وقذف بهم الى الريف العربي فرقاً فرقاً ، وهو يقول : اني أحل لكم هدر دماء العرب ونهب اموالهم ، وهـدم قراهم ، حتى يأتوني مستتركين صاغرين .

فيا ليت شعري أفتشت الدولة الافرنسية أدغال غاباتها ، وتحرت غيران جبالهـــا ؟ فلم تجـد وحشاً ضارياً يمثل الهمجية الافرنسية التمثيل

الوحشي ، حتى انتدبت لذلك القومندان كوليه ؟ أم تيقنت أن بربرية العصور الغابرة ما انفكت تتجمع في نفسه عصراً عصرا ، وما انفك يعيشها بغريزة الحيوان المفترس ، فآثرته على الضواري ، وأقامته علينا حاكما عسكريا وهي تقول :

هذا ابن (السين) ، ربيب الحضارة الافرنسية طفلا وشابا وكهلا ، قد جاءكم يتوج المدنية الغربية بأكليل الخزي والعار ، ويعيد سيرته الأولى في اعالي جبال العلويين ، وفي بطاح دمشق وربوع حمص . . .

القلب الأخضر

إبان غرة الربيع ، يحبو سهل العمق الى الغرب حقلا أخضر زاهيا ومرحـــاً عشيباً ، حتى اذا استقبل سيفَ اليم الأزرق مخضوضراً مزدهراً ، ونشر أريجه عطرياً ، وحمّله رطوبـة المياه ، رده الى رحبه رطيباً منعشاً ، يخطر هنا وهناك تهاديا ، ويفتش عن فتاة عـذراء تسرح بين نواعس المروج لتستاف نواسمه جذلى ، وهي لا تـدري أنها تستاف خمرة الربيع .

وفي غضون الربيع ، ترى السهل يحتضن بقلبه الأخضر الرحيب بحيرة العمق نشوان فرحاً ، فتموج فيه طرباً وسروراً ، وتنادي اليها الغدران بتمتمة أمواجها الهادئة ، فتتسابق اليهـا انسيابا بين المروج الخضراء ، وتجنح الى أحضانهـا ترامياً وباستسلام جميل ، كفادة سكرى تستسلم للكرى على فراش وثير

وفي نهايـة الربيع ، ترى كيف تنداح المزارع شمالا وجنوباً ، وتتهادى صفراوية الوشاح ذهبية الأمواج تصافح سفوح الجبال من هنا وهنـاك بارتعاش ، وتضطجع على أطرافها بذهول حالم ، وتنام النوم الهـــادىء العميق كأنها ليست على ميعاد وصليل منجل الحصاد ، فتبدو وهي مجوع كطفل قروي شاحب ، اتكأ على ساق أمه بسكون وديع .

وهذا السهل الحالم يبشرى الحصاد ، غدا مرتعاً لاجرام الدرك التركي ، وميداناً تتسابق فيه جنود كوليه الى الاثم والعدوان ، وبات العربي في ربوعه شريداً طريدا ، لا تجيره عدالة ولا يستجير بظلوم ، وخشيان مذعوراً يلاحقه الموت من ساعة الى اخرى ان لم يطامن للدرك التركي مستركا ،

او يقدم الرشوة صاغرا .

* * *

أرأيت الى المدلج في الظلمة الداجية يسلك الدرب الموبوء بالشقاوة والأجرام كيف يتوقع من طوارق البهيم تزاحماً احمـــق ضريرا يحيق بحيانه ساحقاً مهلكا ، وكيف يغدو قلقا حذرا وهو هلوع ؟

هكذا اعيش في سهل العمق بجحيم الحذر الشديد مطارداً من خيالة الدرك التركي مطاردة الأشقياء ، حتى أنني لا أكاد أستقر في قريـة اكثر من ساعة أو ساعتين ولا أدري متى ألتقي ويومي الأخير .

جثث تنطق بالدماء

أول ما اطل علي القمر وجه أرجواني ، كوجه جريح تعصب بالدماء ، وأنا أسير وشط البحيرة حذراً قلقاً ، وما ان استوى على عرش السماء منيرا ، حتى رأيت نهود الأمواج تتسابق الى الشط تترى ، وتحتضر فوق الرمال السوداء موجة بعد موجة بلا صخب ولا هدير .

ونجأة لمحت من بعيد دخاناً هائلا ، يتصاعد كثيفا ، ويسرح في السماء انسراح الغيوم ، ومن تحته أشباح من لهيب ، تتراقص رقصاً جنونياً وتدور دوراناً مرعباً ، كأنها وهي تمور في رحب المروج الخضراء جحيم صغير ثوى في قلب روض نضير ، فلكزت جوادي بقسوة ، فانطلق يجري جري الرياح ، حتى أتى ملاعب النيران ، جاذبته العنان بشدة فتسمر بالأرض بحمحم مقهوراً ، فترجلت عنه مسرعا ، وألسنة اللهيب تلتهم أكواخ القش وتندلع الى بيوت السكن شيئاً فشيئا ، والقرية خالية من السكان تستمع الى زفير النيران حسرى ، كأنها الأم تصغي الى حشرجة طفلها الرضيع وهو يحتضر في جوف الليل .

وهنا وقفت مكاني متبلوراً والهواجس تنتابني زمرا ، حتى تسرب الى اذني انين خفيض مضيت اليه قدماً فرأيت شاباً جريحاً طرح على الأرض وحيداً يعاني سكرات الموت ويقلب رأسه ببطء وتوان ، فهالني مرآه هولا شديدا فدنوت منه مرتعشاً أرسل اليه النظر خاشعاً ، وأنينه آخذ بالانطفاء رويداً رويدا ، حتى اذا ناديته ، تفتحت عيناه بأعياء ورام النطق فأعياه ، ثم أومى ببنانه للسماء وفارق الحياة وبنانه الأخرس كأنه يقول : دمي هدر بسيوف جيراننا الأتراك . . . لله دمي ولك ياعروبة اللواء . فأودعت

بنانه المبتل بالدم رنوة الأسى ولامسته بقطرات الدموع ، حتى شعرت بيد تهز كتفي هزا انتفضت واقفاً بوجل واذا بي امام شيخ عجوز أشبه بهياكل الموتى يتكىء على عصاً ترتجف تحت يده ويقول بصوت متلعثم : أأنت هنا ؟ ألا تدري انك المنشود ؟ وتنهد زافراً ومضى يقول : حسبنا... هذا وذاك القتيل فسارع بالهروب ولكن هلممعي لأريك . . . ومشى يجر قدميه جراً فتبعته خطوة خطوة ، حتى قادني الى بيت حقير أنير برعشات سراج خفاق قال بصوت متهدج مخنوق : أنظر . . . هذا ما فعلت أيدي مجرمي الأتراك ، ثم انكب على جثة قتيل شوهت معالم وجهه تشويهاً منكرا ، وراح يوسعه لثما وتقبيلا ويجهش بالبكاء الصارخ المرير حتى صار بكاؤه أنيناً بدأ يغيب في صدره شيئاً فشيئا ؟

وهنا عكفت عليه أتحسس خفقات قلبه ، فاذا هي صموت وهو جثة خرساء ، نامت فوق جثة كانت تنطق بالدماء وتخاطب الأرض قائله :

يا أرض العرب سوف تظلين عطشى لدماء الشهداء حتى ينبعث الجيل العربي الجديد ، فيضرب الدخلاء الظالمين بأيدي من حديد .

وثبة الاعزل

أرأيت الى الدوح الباسق الغابي ، يعمر في الارض دهرا ، كيف اذا اجتاحه سيل عارم هدّار ، يترنح ساخطا ويترضرض متبرما ، ويظل مشمخرا ، يستمع الى هدير المياه جذلان بمناعته المُزّى .

هكذا كان الشعب العربي يعاني ضراوة الأحكام العسكرية الافرنسية ويكابد التسلط التركي على دمائه وأمواله وقراه ، ويقارعها سكيتاً صابراً صبر روابي الرمال على وهج الرمضاء ، ويتسامى على الاستتراك غفوراً بقوميته ، معتزاً بذاته ، منيعاً بعناده ، حتى اذا كان المثل الأعلى بقوة الشكيمة والعزم أهاب بكبير برابرة الأستعمار الكومندان كوليه ، الى إيقاف حملة الارهاب بائساً من اكراه العرب على الاستتراك ، وحدا به الى التخلي عن امارة القتل والاجرام ، والى تهديد المفوضية العليا في بيروت بالاستقالة اذا لم تجد من أمره مخرجا .

وهكذا كرت الايام والبربرية الافرنسية تهادن العرب، وبيروت تتصل بباريز وباريز تتشاور وأنقرة ، حتى أقرتا معا عقد مجلس عسكري تركي افرنسي في مدينة انطاكية ، يبت بمصير اللواء نهائياً واختارتا له ميعاداً قريبا تسفر فيه السلطة الافرنسية عن آخر وجه عاهر ، لسياستها العليا نحو الشرق العربي . فتلك هي مأساة العرب في لواء اسكندرون .

أرأيت الى الليل سحراً وتأملت كيف يفلت الضوء من قبضة الأفق غازياً طباق السماء ، وكيف يبين للسابلة الضليلة أعلام الطريق ؟

هكذا أضاءت لنا مأساة اللواء عن الطاقة العربية فهي باضوائها السارحة في اتجاه الزمان ، ستعلم الشعب العربي كيف يموت ، ومن تعلم الموت خضعت لجلاله ذرى الشامخات .

جذور الذرى

أرأيت الى سلاسل الجبال السارحة في آماد الارض بعداً قاصياوهي تخفض من شموخها الصرح تلو الصرح بانحناء متئد وتهبط رويدا رويدا ، حتى تتساوى واديم السهول ، كيف تتعدد في صروحها مسالك الدروب وتوطأ ذرواتها الصاعدة بلا جهود لاهثة مريرة ؟

هكذا امست ديارنا شبيهة بالجبال الخافضة من كبريائها مدارج لارتقاء ذراها الشامخة ، فكيف لا تتكاثر دول الاستعمار في اقطارنا ، والدرب الى صعابنا هين ويسير ، وكيف لا تغتصب خيراتنا والطريق الى اغتصابها ممهد وامين ، وحتام تظل آلامنا حبلى ، لا تتمخض عن حدث عظيم ، يسربل العربي بسربال التجديد والتعظيم ؟

أرأيت الى الطود الضارب في جوف الارض وتدا راسخاً ، والبالغ من السماء علواً شاهقاً هائلاً ، والمتوحد بالقفر توحداً مروعا ، كالبرج متوجاً راسه بكوى النيران ، كيف يأبى باستكبار شموخ ان يشهد دربا يتسنم صرحه انسيابا ويوقع التردد في قلب من يأتيه متسلقاً ويرومه مسكنا .

فلو أننا غدونا كالطود راسخاً ، بالأرض مشرعاً للسماء يتلمس مسارح السحاب ، لما شهدنا اليوم في مدينة انطاكيه ، انعقاد مجلس عسكري يضم قائداً افرنسياً وآخر تركياً ليقررا مصير اللواء ونحن خرس صامتون صمت الصخور الكئيبة المتعلقة برءوس الجبال الجرداء ولما رأينا القائد الافرنسي وهو يمهر اتفاقية انطاكية ويقول : الآن غرسنا بين العرب والأتراك نواة عداوة رعناء تتوارث جيلا فجيلا ، وانخذنا من تركيا

عدوا تقليديا للعرب ، يناوىء البعثة العربية الكبرى .

أكان هذا الافرنسي يهذي هذيان الطفل الغرير ؟ ألا يدري ان الشعب العربي بحر لجي مار في غيابة الاعماق باضطراب خفي ، حتى اذا ركب اضطرابه غوارب المياه غدا صاخباً هائجاً ، فلا يدع سفينة تجوس خلال الأمواج ، الا وهي فريسة لغياهب الأعماق ، فما شأن تركيا بعالم الاستعمار عالم الحديد والنار ، ونحن نتفتح للموت لنقبض على الحياة .

* * *

ولكن أتدري ان هذا المجلس حدد ميعاداً قريباً لايغال الجيش التركي في ربوع اسكندرون وان الحكومة الوطنية ما زالت تقبع على ارائك الحكم والنوازل تنيخ بساحاتنا اللواء فيا لشقاء عروبة اللواء في آني الزمان حتى يولد الجيل العربي الجديد .

كيف اعانق مصيري

لقد غدا مثلي في الوجود ، ولواء اسكندرون يعاني مصرعه الأليم وحيدا ، كمثل بحار قديم أبحر في شراع صغير ، ضاربا لجج بحر هدار ، مجهول المدى ، عميق القرار ، وهو يتأرجح فيه تائها يائسا ، ويرى شبح مصيره يغوص في جوف الماء ، كلما لاطم شراعه عتو الأمواج ، ويطفو عائما من جديد كلما تباعدت عنه الأمواج قليلا .

فاما ان يستسلم الى مشيئة الأقدار خانعا والموج يتلقفه مزبدا ، واما ان يعانق مصيره باسما ويغوص في غياهب المياه صامتا ، فان له في كلا الحالتين موتا محتما ، ولكن روعة الموت هي في استقباله بالصمت الجميل ، وبالبسمة الاخيرة تلونها السخرية من المأساة ، سخرية البطل الجاهلي من الميتة الخاملة في خباء غص بالنواح والعويل .

هكذا اراني اعانق مصيري راضيا ساكتا ، واغوص في خضم الشقاء شيئا فشيئا ، غير اني افكر بمصير نياز ، فكيف افكر واقرر واختار شتيت الرأي حائراً ، ولكن لا بد من القرار ، ولا مناص من الاختيار ، وطيف نياز يلاحقني باستمرار قائلا من بعيد : رحماك فكر بامري يا مصير ، ورسالتها الاخيره تنتفض في يدى قائلة بالتياع وأسى :

أي مصير ! قيل لي انك أبت من الريف ، فسعيت اليك حري ، لعلي احسك برداً فابترد ، او احسك سعيراً فاحترق ، فان لي بين عذوبة شفتيك نفحات من جنة او لفحات من جحيم ، وليسوء طالعي لم ارك . فقيل لي انك قصدت الريف مرة ثانية ، فأبت من حيث اتيت حسرى وطيفك

الكريم لايريم من خيالي ابدا وانا اتحسسه مشوقة ولهى ، وكأني اتحسس هباء وانظر سرابا ـ أأنت طيف من سراب يجري رقـــراقا في رحاب صحراء ، هكذا اصبحت أراك ، فيا لجدي العاثر متى اصل اليك ، ويا لشقائي في الحياة إن ترامیت جريحة على درب دنياك .

أي مصير ! ها قد انتهى كل شيء وارتدى اللواء ثوبه الجديد .فبربك دعني مدثرة بوشاح هواك ، تخبُ بنفسي جمرات وجدي الصارخ العربيد وينم ارتيابي بسوء مصيري الى حين .

اواه ! ! ما عساني اصنع بمصير نياز وفؤادي امسى بعـد مصرع اللواء سعير حقد مهتاج ، يريد ان يتصبب حمما على غاصبي اللواء ، وان يتمرد ثائراً على نياز ، وهي الفـوح المنعش الرطيب ، يهب عـلي عاطراً مسكراً ، فأنتشيه نهما ، وكنت به مخمورا . . .

فكيف اوفق بين ولهي العنيد وبين كرهي الشديد لمنابت الاتراك . رباه لاستطيع . . . وسوف اغادر اللواء ونفسي جهنم من نزاع عنيف لا يخمد اواره أبداً إلا برأي حازم قاطع بامر نياز .

الى اي مصير ازدلف ؟

ارأيت الى الدوحة الباسقة المعمرة بالأرض دهرا تتحطم بضربة قاضية من شرارة صاعقة كيف تهوي متألمة صارخة وتترك جذورها في جوف التراب حسرى تختلج بالحياة ؟

هكذا غدا مثل عروبة اللواء بعد ان تحطمت غدرا وغدا مثلي كجذر من دوحة أجنه التراب موارا بالحياة ، فكيف لا اشعر وأنا على أهبة الرحيل اني انتزع من جوف الأرض انتزاعاً وأعاني حسرة جارحة وأكابد ألماً فاريا ، وأود لو اغدو نسراً من نسور جبل حبيب لأتخذ من ذروته العليا قنا مستوحشاً آوي اليه كلما اغبر وجه الماء وكلما افتر وجه الصباح ، أشيع نهر العاصي واجماً وهو يتصوب الى البحر حزينا يائسا ، وعند الظهيرة ارسل طرفي الى الرابية الخضراء عاصراً بقبل الرموس بالدموع ، ثم أطلق جناحي للريح هائما على غير هدى ، حتى اذ وجدت أثرا عربياً قديما ، عفرت رأسي في غباره شجيا فان فيه شذى العروبة بكرا وان لي في كل أثر عربي طيبا من رفات اجداد عظام خالطت ذرات التراب من مئات السنين ، فكيف لا أتوق حنيناً الى منبتي الاصيل ، وأنا هيكل من تراب وادي العاصي ، وكيف أرحل عنه رحلة لا أوبة بعدها ابدا ، ولكن لابد من الرحيل والجيش التركي يرابط عند الثغور على اهبة الزحف وقد يكون زاحفا في وادي بيلان يجلجل مدوياً كجيش ظافر عظيم .

رباه الى اي مصير ازدلف خاوي الوفاض لا املك من متاع الدنيا شيئا ، سوى قلب مكلوم جرحته الأشجان ، أازدلف الى مصير مجهول

هتم كعتمة الكهـــوف ؟ هكـذا اراني اسير فنعم اي مصير رسمته لي عروبـــة اللواء .

رباه !! ان يوم الحساب آت وليس ببعيد واننا معشر العرب أمـة نهاضة للحياة انتشرت شعوبا حول شطآن بحار عظام ومن ورائها تسرح رحاب الصحراء ، فمن عناد البحر وهو يلاطم جلاميد الصخور نستلهم التمرد على الطغيان ، ومن آماد الصحراء وهي تتلمس مدار الآفاق نستمد القدرة على تحمل المشاق ، ونمتري الصبر على قتال الأعـداء ، فلن نطامن لطواغيت الاستعمار ابدا ، ولا بد لنا من أن نخلق يوما اغبر تاريخيا فيه نقول : لجـيراننا الأتراك كلمة من حمم الشواظ . . . ارفعوا أيديكم عن اللواء فالعروبة تقيم هنا ما أقامت جبال اللكام .

* * *

وهذه آخر رسالة سطرتها لك متحدثا عن مصرع اللواء وأنـا أهم بالسفر السريع

القسم الرابع

انبعاث الذات العربية

من حلب الى مهجر العرب

أرأيت الى مدينة صحراوية أثرية ، كانت في غابر لزمان مرتعاً لمـوج الذاريات ، كيف تقبع ركوداً في ركام الرمال ، وكـــوى أبراجهـا تستشرف آماد الصحراء، وتنتظر مسيل القوافل تتصوب نحوها من جديد وتتقاطر اليها تترى ؟

هكذا امست الذات العربية الكبرى مثقلة بأعباء الجمود تنوء بالركود وتنتظر ميلاد جيل جديد ، يزحزح عن كواهلها أثقال السنين ، فتنبعث للحياة عظمة وشموخاً ، وتثوب الى سيرتها الأولى .

فـأي فكرة خالقة عاتية تتمخض عن ميلاد الجيل المتيد ؟ ان كل فكرة لاتتولد من حركة الوجود العربي ، خطر يداهم نشوءنا القومي ويقلص امتداد الشخصية العربية التاريخية من أنفسنا الى حـــين ، اذن فنحن بحاجة قصوى الى فكرة حية جبارة ، تنبثق من حركة الوجـود العربي، ومن تفاعله وخلايا الانسانية ، كي تعبر تعبيرا عميقاً عن تطور النفسية العربية وتطلعها الى التقدم والرقي ، حتى اذا غدت حبلى بمقتضيات الحاجات الانسانية تلد عباقرة واعلاما يبعثون الذات العربية من مرقدها الطويل ؛ لهذا لابد لنا من فكرة مبدعة تجعل الانسان العربي يشعر بمسئولية وجـــوده الشعور الايجابي

فلتأمل الوجود العربي الآني باستغراق لندرك كيف ان الشعب غدا يثوء بعدة معتقدات بالية وتقاليد دريسة وعادات مزرية تخنق تطلعه الى

الحياة الراقية الصاعدة بيد من فولاذ ، اذن هو بمسيس حاجـــة الى بعث جـــديـــد يبوّىء الأمة العربية ذروة الخلود .

* * *

ارأيت الى جبل شامخ عظيم ، يحمل ركام الغيوم صائفا شاتيا . وينوء باثقالها صابرا منهوكا ، كيف تتقلص نظرة استشرافه للأبعاد ، وكم هو يحن الى زوابع هوجاء تهب عليه شديدة عاتية ، حتى اذا أزاحت عن هاماته طباق الغيوم ، استشرف الأبعاد من جديد .

هكذا تحن الذات العربية الى عواصف الجيل الجديد تثور بعتو عنيد حتى اذا طوحت بطواغيت الاستعمار والاستثمار تبوأت مكانها اللائق من عالم الانسانية .

أرأيت الى السماء تتكهرب من تضارب السحب وتقـــذف الأرض بسهام من نار ، تجعل حلك الليل يحيا لحظات في رابعة النهار ؟ .

هكذا الذات العربية الكبرى ، وفيها تمكث قدرة السماء وهي تغاضب الأرض وتهلك باتساع أفاقها هوج الأعاصير ، فكيف يستقر قدم الاستعمار في ديارنا ونحن العرب كالسماء اتساعا وغضباً .

المفهوم القومي

اذا أردت ان تتعرف الى عناصر القومية العربية ، فارجع الفكر قليلاً إلى حياة العرب في دنيا الجاهلية ، تر ذاتاً متميزة بنوعية خاصة ، تعيش الحياة بشعور عفوي حدد لها وجوداً منسجماً في خلاياه الصغرى متناقضاً في تهديد طاقته الكبرى ، وهو مطبق على الحياة متفتح للحياة ، محافظ متطور معا .

وهذا الوجـــود القديم انطلق من الجزيرة متفتحاً للانسانية تفتحاً قـويا ، ذلك أن انطـلاقه لم يكن طفرة طائشة لا تعبر عن نزعة أصيلة بالروح العربية ، وانما كان واعياً لنفسه مدركاً مكانته من عالم الانسانية، تحدوه الارادة النبيلة ، وتسيره الدوافع الخفية الى الخلود ، وتهدهد امانيه الحاجة المادية القصوى .

فلمـــا شط الفتح العـربي في اكتساح الارض ، وتفاعل ولفيف الامم تفاعلاً سريعاً ، نضب معين الطاقة العربية ، ففقد الوجود العربي الانسجام الاصيل ، فغدا وجوداً مضطرباً ليس له ارادة كلية، ولا رغبة ملحة ، ولا امنية غالية كأنما ماتت من خياله جنة الأحلام ، فأمسى بمسيس حاجـة الى الاستجمام الطويل . . . وها قد استجم حينا من الدهر، واحال الى طبعه كل شيء دخيل ، ثم استفاق وجوداً آخر منسجما ، ينزع الى نوعية الذات السرمدية نزوعاً عفوياً حاداً .

من هـذا يتضح أن من أهم الميزات العربية التفتح النبيل لخلايا الانسانيه ، ولولا ذلك لما انبثقت عن حركة الوجود الجاهلي افكار جديدة لحياة انسانية جديدة ، ملأت الارض فكراً وابداعاً ، ولولا

ذلك لما قالت السماء للعرب : (كنتم خير أمة أخرجت للناس . . .) .

لذا أراني مفطوراً على التسليم بأن المفهوم القومي كان عند العرب حركياً متطوراً ، وما زال حتى اليوم حركياً متطوراً ، أي أنه لا يرتكز على فكرة قاصرة متبلورة تريد الطغيان على القوميات الاخرى ، أو تضمر العداوة والبغضاء للانسانية . وذلك اذ كان - اي المفهوم - استجابة عميقة للتفتح العربي النبيل ، فاذا لم يأت وفيه جنوح الى النزعة القديمة فلن تكتب له الحياة ابدا .

فمن النظر الى الحياة العربية نستخلص عناصر المفهوم القومي الجديد ، هاك دنيا العرب . . . ترى شعوباً تحدب على الانسانية وتجنح للحرية وتقارع الاستعمار وتنزع الى ذروة الحياة الاجتماعية الراقية ، لذا غدا المفهوم القومي مفهوما انسانياً ثورياً على الاستعمار اشتراكياً ثورياً على انماط حياتنا الاجتماعية الوضيعة .

وهذا ما يلزم العرب الزاماً قسريا باتجاه انساني ثوري ، حتى اذا كان لهم مصير دولي سياسي ، دعموا السلام العالمي بقوى فعالة هائلة ، وساهموا في بنيان حضارة الانسان الجديد .

ولك أن تتساءل : من هو ؟ إنه العربي من كان يعتبر اللغة العربية لغة وجدانه وأداة تبين عن ومضات فكره ، كما يبين الطائر عن شجوه وفرحه بالتغريد ، ومن كان يشعر بأن التاريخ العربي تاريخ له ، وأنه نبثاق معبر عن جوهر الذات العربية في شتى العصور .

الامكانية العربية

لقد نخوض غمرات الخطأ الأكبر في الحكم ، على قابلية الامكانية العربية لتمثل المدنية الحديثة ، قبل ان نتبين كيف كانت الذات ، العربية تتمثل مدنية العالم القديم ، وكيف انتهت الى ادوار الخلق والابداع، ذلك أن النظر الى الواقع ليس نظر ثاقب نفوذ ، اذا لم يسبر مطاوي الماضي باحثاً منقباً كرائد أثري ، فمن الواقع العربي وغابره نتلمس قدرة الامكانية العربية على التمثل وعلى إتيان شيء عظيم .

فهاك دنيا التاريخ ، ارسل الفكر اليها مستقصيا متبيناً النتاج العربي عصرا فعصرا ، حتى اذا تعلم في نقطة واحدة ، يتبين لك كيف كانت الذات العربية تتمثل حضارة العالم القديم ، وكيف أحالتها الى طابعها الأصيل وانتهت الى ادوار الخلق المعجز والابداع الملهم والابتكار العجيب ، ذلك ان الامكانية العربية حركية تتأثر وتؤثر ، وتتمثل وتحيل، فهي منفعلة وفاعلة وأخاذة واهبة ، ومن الحالات التأثرية الانفعالية ندرك أهلية الامة العربية لحياة التطور الدائم في التصاعد الحضاري .

فحياة كحياة العرب الغنية بامكانيات حركية وفعاليات حيوية أدارت لولب التاريخ قرونا عديدة ، لن تمضي من وجودنا سدى وبددا ، ولها بأنفسنا أعمق الأثر البالغ ، واذا لم يأت جيلنا بنتاج قيم جديد فان ذلك راجع الى ان الامكانيات العربية عاجزة حالياً عن التمثل والتجديد ، تتأرجح مابين الانطواء على التراث القديم ، وبين التفتح الضئيل للأخراج والتوليد ، فهي تتأثر بالشيء ولا تؤثر به الى حد بعيد ، حتى تحيله الى اصالة الطابع العربي ، فتنتهي بالتطور التدريجي الى أوج ادوار الخلق والابداع والابتكار .

* * *

ارأيت الى نهر طاغ عظيم ؛ يفيض تأثها على اراض صخرية مـــوات ما اهتزت بحيـــاة الدوح الباسق الوريق ؟ فكم هو بحاجـة قصوى الى سواعد قوية تحول مجراه الى سهوب زاخرة برواسب التراب ، حتى اذا انساب في مسيله الجديد عمراً خلق دنيا سندسية رائعة تتباهى وزرقة السماء.

هكذا أمست الامكانية العربية كالنهر ضليلا تجري في غير مجراهـا الأصيل ، فكم هي تتشوق لأياد كريمة قاسية تميل بمجراهـا الى دنيـا الخصب والنماء ، حتى اذا خلقت نوابغ عظاما وعباقرة أعلاما ، تقدموا برسالة العرب الى الانسان الجديد .

أرأيت الى غدير يتدفق غزيراً من سفح جبل لا يبتعد عن سيف البحر فرسخاً او فرسخين ، ويجري في منسرب واهـد عميق كيف يتحدر الى البحر مشيعاً بحسرات الزراع ؟ .

هكذا نحن طليع الجيل العربي الجديد ، ننظر الى ضياع الطاقة العربية هباء منثوراً بأعين الزراع العاملين، ونتربص الدوائر الساحقة تـــدور بـواعدنا العاتية على اعدائها بالهلاك العاجل المبيد .

الزمن الوجداني

هب الحياة صحروات لا تموت آمادها ، والزمن كان قطاراً يسير في رحابها سيراً خاطفا ، وكلما اجتاز امد صحراء سميت ماضيا ، ألا يعتبر الماضي بادراك الوجدان صوراً من الحياة تتراكم بالذاكرة الانسانية طباقا اذن هو ذكرى ، امتدادها في الحياة الواعية ، الرجعة اليها بصور ملأى بأطياف الغابر البعيد .

وكذلك يحسب المستقبل سيراً سرمدياً في اتجاه واهد الأبعاد ، امتداده في الحياه الكشف عن مطاوي الحياة ، اذن فهو تصور لوجود خيالي ، ينبثق عن الهام الماضي الغني بأحداث الحياة .

اما الحاضر ، فهو لحظات آنية دقيقة جدا ، تحيا بأنفسنا بسرعة النور وتموت بسرعة النور ، لذا كان شعوراً بامتداد الحياة بأنفسنا إلى أجل محدود ، يستحيل بالذاكرة الى صور شتى ، تنضم الى رصيد الماضي ثروة جديدة غنية بالتجاريب .

هكذا الزمن بمعايشة الوجدان ، ذكرى وتصور وشعور ، ذكرى تقرب الأمس البعيد من اليوم الحاضر ، وتقذف بها سوية باتجاه المستقبل المجهول ، فهو صورة للحياة السرمدية تسير الى غاية سامية ، هي الرقي الانساني ، ذلك أن الذكرى رجعة الى الغابر ، وفي الغابر عِبر ، والتصور خلق مثالي ميدانه غيهب المستقبل ، وفي المثال انسياق مع التطور التدريجي نحو القدم والجنوح بالفكر الخيالي الى الابتكار والاختراع والابداع ، والشعور وعي للحاضر ، وفي الوعي نفوذ الى حقائق الحياة .

هكذا الزمن في إهاب الحياة ، زمن روحي ، عناصره الاطوار المثالي والخلق الفكري ، قوامه القيم والمثل العليا ، المنبثقة من حركة الحياة الاجتماعية ، والناشطة للأخذ بيد الانسانية رويداً الى ذرى التكامل الانساني.

وهذا الزمن الوجداني، يسير بحياتنا نحن العرب، سيراً متشابهاً وحركة الحياة الكبرى، لذا كانت حياتنا القومية حياة تذكرية وتصورية وشعورية تنشد التصاعد نحو القيم الحسنى والمثل العليا ، وتسير في اتجاه مصير محتوم ، حتى اذا نالت من القيم والمثل قسطا وافراً، أشعرتنا أن أن في أعناقنا للانسانية دينا مقدسا هو الرسالة العربية الخالدة .

وكذلك اشعرت حركة الحياة الجاهلية آباءنا الأولين ، بأنهم حملة رسالة انسانية فازدلفوا الى العالم القديم، وكلهم قيم ومثل ومفاهيم تلك هي شعلة الرسالة الخالدة عند العرب .

فاذا غدت دنيا العرب ملأى بالقيم والمثل والمفاهيم ، اصبح بديهياً أن تجنح الأمة العربية في ظروف مواتية الى حمل رسالتها الخالدة، فان كل أمة تاريخية حية مسيرة الى حقيقة ذاتها قسراً . وهكذا تسير الأمة العربية الى حقيقتها المطلقة ، الى الرسالة الخالدة . وتلك هي حقيقة العرب !.

الرسالة الخالدة

ارأيت الى الرحالة الناشط لاكتشاف مجاهل الحياة ، يسبر اغواراً مجهولة القرار ، كيف يقف متأملا كلما سبر غوراً واهداً، حتى اذا ادرك كيف كان يطوي الأعماق طيا ، استشف آفاق الغيب ، وتنبأ بمصير رحلته ، حتى اذا عايشها بوجدان نزيه ، غدا مستقبله الجديد اشعاعا حيا ، يشع من نفسه دفقة بعد اخرى ؟

هكذا سيقف طليع جبلنا العربي متأملا مطاوي التاريخ ، باعتباره انبثاقا معبراً عن جوهر العرب في شتى العصور ، حتى اذا ادرك كيف كانت الصيرورة التاريخية تنقل الذات العربية من حياة الفروسية والفتح الى حياة الحضارة والمدنية ، ومن ثم الى حياة الاستجمام الطويل ، وجد نفسه يحمل مستقبل الأمة العربية طوعاً او كرهاً ، واعتبر وجوده حصيلة حية مدركة انبثقت من وثبات الأجيال العربية الغابرة نحو الخلود ، واستطاع ان يتنبأ بمصير المستقبل العربي ، وان يتفهم سير تطوره العلوي ، ويتخيله كائناً حيا في عالم الوجود ، حتى اذا عايشه باستغراق وجداني ، استشف الدور الاول للرسالة العربية الخالدة بين الشعب ، وكشف عن سر العبقرية العربية . ذلك ان الرسالة العربية طاقة روحية تحيا كامنة بأنفسنا ، وإهاب من نور سرمد يحتوي أنفسنا ، نتلمسه بالمعايشة الوجدانية الخالصة ، ونتوصل اليه بالمعايشة الحية الواعية، فان لنا في كلا المعايشتين تفتحاً ثم وعياً وعملا للحياة ، وان لنا في العمل تكوينا وتحقيقا . وفي التحقيق خلق جديد ، وفي الخلق ارتفاع الى مصاف الأنبياء ، وهنا تبلغ الرسالة العربية ذروة الاشعاع الواهب السخي .

فان استطاع طليع جيلنا الواعي ان يستشف من اعماق نفسيته انواراً من اهاب رسالته ، تفجّر من قلبه ودماغه وساعده ينابيع العبقرية الهاجعة في دواخل ذاته ، وتحسس قيمتـــه ، واستوعب مسئولية وجـوده ونشط للنضال الدائم ، والعمل المنتج في بناء حضارة الجيل العربي الجديـد .

فحقيق علينا نحن شباب العرب أن نفكر بأعماقنا تفكيراً صافيا ، ونتأمل وجودنا الغابر تأملا نزيها ، لنهتدي الى قيمتنا كأمـة حية بين ضامة الانسانية ، ومن قدر قيمته منا حق قدرها ، باتت الحياه المثلى في قبضة يده ، وغدا نواة صالحة في تربة الجيل العربي الجديد .

صوت من وراء البحار

من مهجر العرب في البرازيل الى مصر

لقد كنت أشعر اني صدى لحن تائه ردده التاريخ منذ مئات السنين ، كلما اجتاح فكري من صخب الحضارة وضوضاء الآلة تيار مادي ، وكان ضميري يستفيق الي لحظات عابرة ، فاسمع له حسيساً مخيفاً كحسيس حشرة تقتضم جزع شجرة ، كلما استجابت نفسي الى فكرة خطرة ، تتنافر واحكام القيم العربية الخالدة .

وما ان تواردت علي رسائلك تباعا ، حتى شعرت باني عـــربي ، والعربي لحن خالد ثائر استمعت له الانسانية حيناً من الدهر . . . وها هو يصغى الى كلمات الحضارة ، حتى اذا استوعب كلماتها الخالدة نهض للحياة الصاعدة وقال كلمته الأولى !.

ولما تلقيت نبأ مصرع اللواء خلته نعيا آتيا من فجاج التاريخ . . فتذكرت بأقصوصة الفارس الجاهلي حينما أتوه بأخيه قتيلا ، فانتصب أمامه واجماً يرنو اليه رنوات آسفة عابرة ، ثم استل حسامه وحدق به تحديقا مستطيلا ، حتى اذا تحدرت من عينه دمعة صامتة كدمعة اسد جريح ، مضي ينشد الثأر كئيباً كاسفاً .

هذه نظرة الحياة الى الموت ، وهي تطوي نفسها بنفسها دائبة ، وتمضي في جنونها المبدع ناشطة . فان لم ننظر الى مأساة اللواء تلك النظرة القاسية الملهمة ، والى سيوفنـــا الف نظرة ونظرة ، فلن تمتد أيدينا الى أعدائنا بضربة قاضية ، ولن نقوى على طي أعمارنا بابتسامة ساخرة ، ذلك ان النظر الى مآسينا القومية بأحداق حادة نارية ، يجعلنا نستطيب

السمو على ذواتنا ، حتى اذا سمونا عليها سمواً كبيراً ، كابدنا عظمة الخلود ، وكنا رجالاً عظاماً نطوي حياتنا بابتسامة هازئة ، ونسخر من اعدائنا سخرية بالغة .

ولو انك يا مصير ! نظرت الى هواك نظرة هذا الجاهلي الى دم أخيه ، لكان هينا عليك ان تلف أحلام فؤادك المكلوم بافتراء ساخر ، وأن تقرر مصيرا لنياز مروعا كمصير اللواء ، وان كانت ملكا ناعمـــاً تؤذيها نفحة واحدة من عبير ثقيل ..

. . .

إننا نروم لأولادنا امهات واعيات عنيفات يحملن تبعة وجودهن كنساء عربيات ، حتى اذا غرسن بأنفس اطفالهن الحقد القومي ، تعلموا كيف يضربون اعداء العرب ضربا حاسماً قاضياً ، وتلك هي مزايا أجدادنا الاولين .

الرجعة الى المعاد

لنتساءل ما الذي يبعث العربي من مهجعه ، ويرده الى معاد قيمه مؤمناً بنفسه ؟

ان للايمان حياة حركية عنيفة ، تهز العواطف هزاً شديدا فتتفتح للجود والبذل والتضحية ، ولكنه تمثلك للمشاعر ، يقلص نفوذ الفكر ، ولا يخلق ابداعا خارقا ، بل ربما أمات الملكات المولدة ، وحدّ من طاقة المواهب الخالقة ، وأعاق سير التقدم الصاعد ، ذلك أنه لا يستقر بالأنفس الا ايحاءً وتكرارا ، فيجعل الشعب كفيف البصر عن شخصيته ، ويجعل المجتمع آلة ضخمة تتحرك بلولب واحد ... فشر المجتمعات المجتمع الأصم الآلي .

فلن يبعث العربي من مهجعه ويرده الى معاد قيمه الا ايمان حركي ايجابي مبدع ، لا يتبلور بقالب فكرة ضحلة قاصرة ، ليس لها جذور ثابتة في قرارة النفسية العربية . ذلك ان للعربي فضيلة حية ، ما زالت تهجع في قراره ، هي الفردية الحرة . إن استفاق لها عمرا استفاقت له دهراً ، واترعته بأجلّ القيم الذاتية شأناً ، حتى اذا آمن كان ايمانه ذاتياً مبدعاً ، يقصيه عن سحر الايمان الايحائي الرائج .

ولو ان العربي يشعر بفرديته شعورا قوياً ، لكانت القيم الاجتماعية الصارمة طيعة لوجدانه ، فيغدو ، وهو يعايش قوميته ، ذاتياً اجتماعيا بقيمه ، فردياً بمشاعره وعواطفه ، يتحسس الواجب بدافع وجداني ، ويتقدم للتضحية جباراً عاتياً كالطود متساميا بين الأطواد . ذلك ان الفردية اليفة معايشة الوجدان ، وفي الألفة اطمئنان للضمير ، وهروب من الشك ،

واقتراب من اليقين . وفي كلا الخالتين سعادة للقلب الكبير ، والسعادة ديدن الانسان .

فاذا عايش الشعب أساطيره، وتأمل مصارع أبطاله، تفتحت فرديته لقيم البطولة ، وتهيأ لحمل رسالته الخالدة ، حتى اذ اخذ باسباب الحضارة الحديثة كان ديدنه الوحيد الاخذ بناصية الانسانية الى انسانيته ، فيستهين بالموت ويتسنم قمة الغيرية مطمئناً راضياً . ذلك ان له بالغيرية سعادة روحية ، وفي هذه السعادة دنو من مراتب العظمة ، وهنا ينشد المربي سعادته في تأدية رسالته . وتلك لعمري هي سعادة الأنبياء ! .

الميتة الموحشة

من مهاجر لوائي الى «مصير»

منذ ايال خلت من عمر الزمان ، وصديقك (عامر) فريسة لمناسر داء قاتل يصارعه دائباً، حتى اذا انتزع منه جذوة الحياة ، كنت اساهر مأساته كئيبا شجيا ، واصغي الى كلماته الأخيرة بحسرة جريحة واسى مرير .

وكأني أراه ، وشبح الموت يظلل وجهه الضامر بأجنحة الشحوب ، وغمرة الاحتضار تثقل أجفانه ، وتكسر اهدابه ، فتغيّب صفره عينيه، وهو مستلق على ظهره بهدوء يحلم بظلمة القبور ، وينتظر دنو المنية من ساعة لى اخرى . حتى اذا أخذ الموت يشل جسده عضوا عضوا ، تيقن أنه هالك.. ناداني اليه مذعوراً كالطفل ينادي أباه .

وكأني به وأنامله الهزيلة تلامس كفي بارتعاش ، وهو يلقي عليّ كلماته الشجية بصوت مختلج كان يتسرب الى اذني ألحاناً حزينة با كية :

أواه ! ! من لي بعين عبرى ترتعش لمشهدي محتضرا . . . وآهة حرى تشيع روحي الى السماء حتى تبلغ الملأ الأعلى ، فاني لهلوع من الموت غريباً وأود أن أفارق الحياة تحت سماء اللواء ، وأن تلحد عيني بحفنة من تراب وادي العاصي . . . ولكن هكذ شاءت الأقدار أن أعاني سكرات الموت بعيداً . . .

وصمت صمتا مديدا ، وأغمض عينيه بسكون حالم . كأنما آض بروحه إلى دنيا الوطن يودع مراتع طفولته وذكريات شبابه ومغاني أهله الوداع الأخير . ثم فتح أجفانه باعياء، فاذا هي تتهلل بعبرات مرتعشات ، كالزهرة

الذابلة ، تضطرب بقطرات الندى . . . وما أن عاوده الكلام حتى قال بصوت جريح : رباه ! سامح مصير ... إنه أوقد في نفسي ضرام حنين ملتاع الى دنيا العرب ودنيا الوفاء ، وحملني من شقاء الوطن ما لا أطيق ومشعل حياتي آخذ بالانطفاء .

رباه ! من لي بميتة في غرفتي الهادئة . . . أرنو من النافذة الى العاصي رنوة مودعة ، حتى تنسل روحي من جسدي رويداً رويداً ، فأغمض أجفاني الغمضة الأبدية على أطياف ذكرياتي الهاجعة تحت ظلال الزيزفونة الهرمة ، فاني لتواق الى روع الوادي والى حقول العاصي . ولكن هكذا ارادت الأقدار أن أموت ميتة موحشة محزنة .

رباه ! كم كنت أود أن أرى دموع أمي تتساقط على خدي دمعة فدمعة . فاني لمشوق الى حنان بريء . . . فأين أنت يا أماه . . .

وهنا سكت سكوتا طويلا ، وشخص بصره للسماء جامدا ، واهتز مختلجا فظننته فارق الحياة قلقا مضطربا ، حتى اذا دنوت منه سمعته يقول بصوت واهن كالأنين :

رباه . . . أين أنا ؟ أهنا . . . انطاكية .. هي .. غرفتي ، هي أمي... رباه اين مصير . . ؟ وصمت مبتسما ابتسامة وادعة راضية ، وارسل من قلبه النسمة الأخيرة مطمئناً هادئا كأنه يعيش حلما رائعا لذيذا .

أعود.. غازيا!

لنعد الى مصير، حيث تركناه في حديقة الشهبندر يستعرض أطياف ذكرياته بشرود، لنجده الآن جليس شاب تركي وسيم أتاه رسولا يحمل كتابا من نياز وآخر من والدها تيمور، وهو ينتظر الجواب. ومصير يقرأ الكتاب بحسرة مريرة فارية، والعرق يتنزى من جبينه باردا كلما قرأ سطرا صارخا يختلج بشعور حي، حتى أتى على قولها « رحماك . . عد الي ترني لك قلبا علويا تجمعت فيه رحمة السماء » وجب قلبه وارتعش واختلج، وشرد فكره في دنيا نياز وكاد يغيب... ثم أرسل الى السماء نظرة حيرى وتنهد زافراً، وتابع قراءة الكتاب ببطء وتوان، حتى انتهى منه كئيباً، رنا اليه رنوة الحب اليائس، واطرق مفكرا والأسى يراوده على العبرات. وهذا هو الكتاب.

اي مصير . . . من هذا الوجيب الخفاق استشف سواد نواياك، فلم هي مظلمة كجنة ليل بهيم؟ وعهدي بها صافية كزرقة السماء، أتريد ان اضرب شغاف قلبي شطر السلوان الأبدى؟ أواه لاأستطيع وأنا اراك في وجودي المجدب روضاً رائعاً خلويا أقام في جزيرة قاصية، والبحر من دونها هائج عربيد . .

فكيف الوصول اليك وشراعي جنوح لايقتحم صخب الأمواج، ولا يصارع تيار الأنواء ومجدافي محظم لايشق عباب المياه، ولكن ديدني الوصول اليك، تلك هي مأساتي في الحياه.

يامصير أمسي الجميل اليس الأمس كاليوم ليلا ونهاراً، فلم يومي ليل سرمد بهيم؟ عد الي بقلبك في الأمس ترني لك قلبا علويا، تجمعت فيه

رحمة السماء ، علني أرى يومي بهجا كأمس القريب ، عد الي عودة الجندي الى امه بعد سفر في مجاهل الأيام، ترني لك قلباً كبيرا تلملم فيه حنان الأمهات . او أومىء الي من بعيد أحبُّ اليك حبو الطفل الرضيع الى ثدي أمه وهو فرح سعيد .

اي مصير ! ماذا علي من جرم اذا كانت الأقدار اوصبتني بحمى هواك، وأنت موصب بحمى عروبتك ، كلانا ذلك الموصب المحموم ، كلانا العوبة بيد القدر ، أأستطيع دفعاً لجنون الأقدار؟ لا وعينيك ! فلم هجرتني يامصير، وتركتني كابية في معاثر دنياك فرحمة بي وشفقة علي .. عد الي مهرعا ترني بانتظارك لهيفة صباح مساء .

وما ان انتفض مصير من شروده المفكر، حتى نظر الى الرسول نظرة عاطفية حزينة كأنه ينظر الى نياز ، وتناول القلم وحدق به بطرف اخرس، كما يحدق المنتحر برأس خنجره ، وكتب في آخر الكتاب.. وقلبه خفاق، وكفه ترتجف كأن بها مسا من الجن :

« لن أعود ! . . »

ودفع بالكتاب الى الرسول باطراقه خجول ، وتناول كتاب تيمور ، وفض غلافه هادئا وراح يقرأ ... وهذا هو الكتاب :

«ولدي مصير ! منذ رأيتك أول مرة، توسمت بك النبل الرفيع، وبدا لي من خلال حديثك انك بدوة من طيش جامح تجنح الى التطرف ، فحذرت نياز من الاسترسال معك الى حد بعيد، فما كانت لترعوي، فتنبأت لها بمصير أسود عديم ، ذلك اني كنت اعتقد اعتقاداً لا مِرْيَ فيه ، انه سيأتي على اللواء يوم تاريخي، فيه يغشى بصيرتك الحقد القومي، فيباعد بينك وبين التفكير الهادىء بأمر نياز ، وتغادر اللواء حانقاً غاضبا .

لك أن تغضب .. وان تتوقد غيظا كرجل غلب على أمره ، ولكن ليس عليك ان لا تهتم بأمر نياز ، ولي ان ادعوك الى التفكير المجرد من رعونة الأحقاد، وليس ذلك بأمر نياز فحسب ، بل بأمر مستقبلك أنت.

«ولدي مصير! فكر كثيرا، ماذا ترى لك من حياة ان ظللت بعيدا، غير حياة تشرد وحياة شقاء؟ هذا اذا كان جدك عاثرا كابيا ، اما اذا الوى عليك التوفيق برحمته، فليس لك سوى حياة الكفاف... حياة الجحيم والعذاب

«ولدي مصير ان قصرك لم تمسه يد غاصبة بعد ، ومزرعتك لم ترقم بشارة الحجز ، ونياز ما زالت بانتظارك زوجة فاضلة ، وأنت أدرى بنياز ... هذا ان كان طموحك محدودا ، أما اذا كنت ذا طموح بعيد، فان لك عندنا مجال المستقبل فسيحاً، وليس ذلك في اللواء بل بسائر انحاء تركيا !

« ولدي مصير ، انك لعلى ذكاء لامع وقاد ، فحرام عليك أن تقتل شبابك متشردا طريدا ، وأن تطفىء شعلة ذكائك بيدك . . . عد الينا مسرعا ترني لك أباً جديدا ».

* * *

وما أن انتهى من قراءة الكتاب حتى طوى ما فيه من أمانٍ مشرقة وأحلام زاهية بابتسامة ساخرة ، وكتب بآخره هذه العباره .

سوف اعود غازيا ان استطعت ، وان لم استطع فولدي ، وان لم يستطع فحفيدي ... تلك هي مهمة الجيل العربي الجديد ! .

مصير

كتب المؤلف

أنا وأنت

مصرع اللواء

قريبا

يصدر كتاب

في الاعماق

للقصصي الاستاذ مراد السباعي

مجموعة نادرة من روائع القصص

Library of

Princeton University.

Princeton University Library
32101 072235524